مسئولية الكتاب العربي فى التعريف

بقلم
دكتور عبد الحميد يونس

تتضافر الجهود اليوم على الكشف عن التراث الشعبى العربى ، وهو تراث ساير الحضارة منذ أقدم عصورها ، ولقد توسل بجميع وسائل التعبير من الكلمة والحركة والاشارة والايقاع وتشكيل المادة ، واتسم بما ينبغى أن يتسم به كل مأثور شعبى من حيوية ومرونة تجعله قابلا للتطور ، قادرا على انتزاع البقاء وعاملا على تواصل الخبرة والمعرفة بين الاجيال على اختلاف البيئات والعصور. وهذا التراث الشعبى قد نهض – ولايزال ينهض – بتحقيق المثل الاجتماعية والأخلاقية والقيم الانسانية العليا ، الى جانب استيعابه للمنفعة • وكان طبيعيا ، بعد أن أحس الشعب العربى وجوده ، وبعد أن أدرك مكانه من الحضارة والتاريخ ، أن يفتش عن تراثه الصحيح ، وأن يميزه من غيره ، وأن يتوسل بطرائق العلم الموضوعى فى جمعه وتحقيقه وتوثيقه ودراسته ، الى جانب تقديم نماذج منه لأصحاب القرائح المعبرة ، يستلهمونها فى اطار الاشكال الادبية والفنية التى يؤثرون ، وبذلك يرتكزون فى ابداعهم على التقاليد الصحيحة، ويحافظون فى الوقت نفسه على ملامح المجتمع والشعب ، ويجمعون فى آثارهم أصالة العبقرية الفردية ، والقومية على السواء •

ولا يستطيع مؤرخ للآداب والفنون العربية المعاصرة ، أن يغفل هذه الحقيقة وهى : أن التراث الشعبى قد وجد طريقه بالفعل فى مجالات التعبير على اختلاف وسائلها ووظائفها وأشكالها • فما أكثر المعارض التى استوعبت الصور المستلهمة من حياة الشعب ومن تراثه ، وما أكثر المقطعات الموسيقية والغنائية التى تعيد صياغة النغم الشعبى ، والعبارة الشعبية المنظومة ، وما أكثر المسرحيات التى تعتمد فى روعتها على الاستمداد المباشر من الموال الشعبى ، والحكاية الشعبية ، وما أكثر الأدباء والفنانين الذين أدركوا قيمة المأثور الشعبى،واتخذوا من مضامينه



بالإبداع الشعبى

الرموز النابضة بتعبير الشعب وموقف الشعب ! ولقد تبدد ، الى غير رجعة ، ذلك الوهم القديم الذى كان يستعلى على مناهج الشعب فى تحقيق ذاتيته العامة ، وتشخيص مواقفه والاستجابة لوقع الحياة على نفسه وفكره ولسانه ، ولذلك كان بديهيا أن تبذل الجهود لتصحيح مفهوم التراث القومى ، بحيث تكون المأثورات الشعبية فى مكان الصدارة والاحترام من ذلك التراث على عراقته وشموله وحيويته .

ولما كانت اشتراكيتنا تقتضى بالضرورة أن تؤثر النظرة العلمية للحياة ، فقد صحت عزيمتنا على التخطيط الموضوعى لجميع مرافقنا ، ومنها مرفق الثقافة العامة التى تنهض بتبعات التوعية والتثقيف ، حتى يعيش المواطن عصره ، وحتى يدرك ، عن بصيرة ، مسئوليته تجاه المرحلة المجيدة التى يحياها . ولذلك برزت العناية بتنظيم الجهد المبذول فى معرفة التراث الشعبى ، والمحافظة عليه ، والتفاعل معه ، ولم يعد الامر مقصورا على الحماس العاطفى ، ولا على العمل الجزئى ، وانما أصبح ، أو لعل الاصح أن نقول ، انه يوشك ان يصبح جهدا متكاملا يستوعب التدرب على الجمع والتصنيف للتراث الشعبى ، الى جانب الدراسة المنهجية له ، مع العمل المنظم على التعريف به لأصحابه الحقيقيين ، وهم جماهير الشعب .

ومنذ أكثر من عشر سنوات ، اعترفت الهيئة الاجتماعية بالتراث الشعبى ، فجعلت للفنون الشعبية لجنة خاصة بها بين لجان المجلس الاعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . وخرج الى الوجود مركز الفنون الشعبية ليقوم بالجمع والتصنيف وتقديم المادة الشعبية للدارسين والأدباء والفنانين . وقامت الجامعات بتبعاتها فى هذا المجال ، وأفردت للأدب الشعبى الاساتذة والدارسين ، وكذلك فعلت المعاهد الفنية العليا .

وعنى الكتاب العربى بهذا التراث الشعبى أيضا فخرج الى الناس بمجموعة من الكتب عن الشعر الشعبى والسير الشعبية، والأزياء الشعبية وما اليها، ولكننا مع ذلك نتساءل : هل قام هذا الوعاء الثقافى العظيم ، وهو «الكتاب» بمسئوليته الكاملة تجاه التراث الشعبى الذى يستوعب أشكال الفنون ووسائل التعبير ، وحصيلة المعرفة والخبرة لشعب تعود حضارته الى أعماق الماضى البعيد ؟ وهل طوعت وسائل التسجيل والتصوير لأغراض الطباعة بحيث تجتمع عناصر الفن الشعبى والأدب الشعبى بين دفتى كتاب ، يفيد منه القارىء ويحتفظ به ، ولا يقتصر تفاعله معه على الصورة التى تظهر وتختفى ، أو على الصوت الذى يتبدد فى الفضاء ولا ارادة للانسان فى استرجاعه .. ؟ لقد تقدم العلم حتى أصبحنا نعيش فى عصر استطاع بفضل التحكم فى الطاقة ، ان ينتزع البقاء للصورة والصوت والحركة .. فهل ترانا فكرنا فى الافادة من هذه الحقيقة ونحن نعمل على التعريف بتراثنا الشعبى ؟ ..

ولسنا من الذين يشغلون أنفسهم بتلك الاصوات الخافتة التى همست ، مطالبة بالتخفف من العناية بتحقيق التراث فى مجال المعرفة المدونة ، لأن التخطيط الموضوعى لابد وأن يقوم على انتخاب ، ولابد أن يستكمل المنهج المقرر فى التوثيق والتحقيق ، ولابد أن يفرق بين النشر الكامل لنص منتخب ، وبين التعريف به وتقويمه ، على أساس الاطار الحضارى والثقافى له • بيد أن التراث الشعبى يفرض منهجا آخر يختلف عن المنهج الاول ، لأنه بحكم طبيعته يستوعب نصا مدونا فى بيئة معينة أو عصر معين ، ونصا حيا فعلا لا يزال يقوم بوظيفته فى ترسيب الخبرة والمعرفة وتحقيق الخير والجمال والمنفعة ، وهذا التراث ـ كما سبق أن أوضحنا ـ يصطنع كل وسائل التعبير أو أكثرها ٠٠ ان الاثر الشعبى ليس كله مخطوطة أو مجموعة من المخطوطات تنقل أو تصور من هذه المكتبة أو تلك .. انه كلام مجهور له نبره وايقاعه مع حركة تمازجه ، واشارة تعد جزءا لا يتجزء من دلالته، وايقاع لا يمكن أن ينفصل عنه ، ومادة مشكلة تصاحبه ٠٠ ولذلك كان تحقيق هذا التراث ونشره والتعريف به جهدا مختلفا يصطنع مناهج مغايرة وضعها العلماء والدارسون بعد خبرة اجيال ، مفيدين من الوسائل الحديثة فى التسجيل والتصوير والكتابة الموسيقية والرموز الصوتية .

وهنا يلتقى منهج تحقيق التراث المدون بمنهج تحقيق التراث الشعبى فى ناحية ، ويفترق عنه فى نواح أخرى ... يلتقى به فى النظرة الكلية لمناهج المحافظة على التراث الشعبى ، ونحن اذا كنا نحرص على المخطوطات التى لها قيمتها العلمية أو الادبية أو الحضارية، فاننا يجب فى الوقت نفسه ان نكون أحرص على المأثورات الشعبية التى سبق تدوينها ، والتى نهض بمسئولية هذا التدوين اجيال سبقتنا ، وهذا يقتضى أن تستعيد هذه المدونات الشعبية احترامها الذى فقدته بالنظرة الاستعلائية القديمة ، وأن تستوعب دار الكتب القومية ، وسائر دور الكتب هذه المخطوطات بعد ان تبذل الجهد فى البحث عنها واقتنائها . وانا أسوق شاهدين اثنين يؤيدان هذا المطلب: الأول أننى عرفت أثناء زيارتى لواحة سيوه ، أن علما من أعلام هذه الواحة قد دون أيامها وتواريخها من صدور الناس على طريقة الرواة





الاقدمين ، وأن هذا التاريخ جمع فى أعطافه تصورات وأخيلة شعبية عن الوقائع والاحداث ، فلما فتشت مع الصحاب الذين كانوا معى عن ذلك المخطوط ، لم أجده ، وقيل لى . انه يقبع الان فى احدى المكتبات الخاصة بالاسكندريه ! الثانى : ان العلامة احمد تيمور كان من المعنيين بالتراث الشعبى ، وانه بذل المال والجهد فى سبيل جمعه وتدوينه ، وعلى الرغم من صدور كتبه عن الامثال والكنايات الشعبيه ، وعن خيـال الظل ، فان هنـاك الكثير الراقد بين الاوراق والأضابير ... وعلى راس هذا كله ، معجمه عن الالفاظ العامية القاهرية ... ! ألم يكون الواجب يقتضينا أن نضم تاريخ سيوه بتصوراته الشعبية ، والالفاظ العاميه القاهرية منذ خمسين سنه ، الى المخطوطات النفيسة فى المكتبه القومية العامه .. ! هذان شاهدان اثنان من آلاف الشواهد التى تكشف عن احدى مسئوليات الكتاب العربى فى مجرد المحافظة على جانب من تراثنا الشعبى .

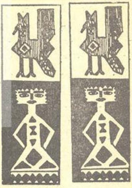
وقبل أن تفرغ من المادة الشعبية المدونة غير المطبوعة ، نرى لزاما علينا ان نشير الى منهج تصنيف المعرفة فى مكتباتنا العامة ، ونحن نعترف بأن لهذا المنهج اصوله المقررة ، ولكننا نعترف فى الوقت نفسه ، ان هناك تقدما ملحوظا فى هذا المنهج ، وأنه ليس ، ولا يمكن ان يكون ، تقليدا جامدا لا يساير تطور المعرفه ... نقول ذلك ، لان فهارس دار الكتب وغيرها من الدور لا تزال تضع مدونات التراث الشعبى المخطوطه والمطبوعة فى ابواب تقليديه لا تكاد تميز حتى بين فروع تلك الابواب ، ويبدو من النظر الى الفهارس ، التشبث بقدر من الاستعلاء على التراث الشعبى . وكان الطبيعى ان يفرد لمأثورات الشعب باب قائم براسه يضم الاصول الى الفروع ، ويقسمها على أساس العلم الخاص بهذه المأثورات . وهو علم قد اصبح منذ أجيال فرعا معترفا به من العلوم الانسانية . واذا كانت الوظيفه تخلق العضو — كما نلح دائما — فسـوف يخرج الى الحيـاة ذلك الفهرس الخاص بمأثورات الشعب . ولن يفيد هـذا الفهرس العلمـاء والدارسين فحسب ، ولن يكون مصـدر الهـام للمبدعين فقط ، ولكنه سيكون تجسيما ضروريا لمكانة الخبرة الشعبية من التراث القومى .

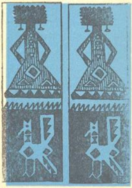
وهناك خطأ شائع عن التراث الشعبى لابد من تصحيحه ونحن نتحدث عن مسئولية الكتاب العربى تجاهه ، وهذا الخطأ يتصـور العبقرية والابداع تصورا رومانسيا أو يحكم عليهما حكما لا يتوسل بالعلم ، ولا يستند الى المواجهة الواقعية ، ذلك لأن هناك فريقا من الناس يرى أن الشعب يردد خبرته ومعـرفته وتعبيره ترديدا آليا أو شبه آلى ، وأن تراث الشعب انما يرتكز على التقليد ، والواقع ان الابداع عنصر رئيسى من عناصر المأثورات الشعبية ، وليس ما يصيبها مجرد تحريف أو تصحيف اقتضتهما الذاكرة غير المسعفة ، أو الخبرة غير المستوعبة ، أو الدربة الناقصة ، ولكنه تغير أثمرته حيوية تلك المأثورات ومرونتها وقدرتها على التطور ، حتى لقد ثبت عند الدارسين الثقات ، أن الابداع خصيصة أساسية من خصائص هذه المأثورات الشعبية ، وبينهم من تتبع معالمها ومناهجها ووسـائلها الى جانب بواعثها على التعديل ، كما أن الأدباء الشعبيين يبدعون مرتجلين ، وهى

ظاهرة أصبحت الآن واضحة لا تحتاج الى برهان .

من هنا تبدو مسئولية الكتاب العربى تجاه الابداع الشعبى عظيمة وحيوية لأن الكتاب بطبيعته يمتاز عن غيره من أوعية الثقافة بقدرته على التثبيت والتنقل والاستعادة ، وان كان أقل من تلك الأوعية فيما يتصل بالصوت والحركة ... ان الكتاب يستوعب الصورة والرسم وبعض الرموز الدالة على الصوتيات ، ويستوعب العلامات الموسيقية التى تسجل اللحن ، ولكنه لا يفى بأدق خصائص النبر والجهر والايقاع والحركة ... فماذا عساه ان يصنع مع ابداع يصطنع جميع هذه الوسائل ؟

ان مسئولية الكتاب العربى مزدوجة فى هذا المجال ... انها تقتضى فى مراكز التوثيق ، وأوساط العلم ، ودور الكتب ، أن نضم تسجيل الصوت والحركة ، الى جانب تسجيل الكلمة ، وهذا يتطلب أن تتحول الوثائق من مجرد نصوص مدونة ، الى وثائق بصرية وسمعية أيضا ، تحافظ على الصورة والحركة ونبرات الصوت ، الى جانب الكتابة المألوفة . ونحن نقول ذلك لأن الاعتماد على مجرد الوصف على هامش النص أو الوثيقة ـ كما فعل القدماء ـ لم يعد يلائم الادراك الواجب لطبيعة المأثور الشعبى . ويحق لنا أن نضرب هنا أيضا مثلا يؤيد هذه الرغبة الملحة : وهو أن مكتبة الجامعة يجب أن تفطن الى التسجيلات الصوتية ، والافلام المتحركة ، لأن الدارسين الجامعيين قد أخذ بعضهم بالعمل الميدانى فى دراسة المأثورات الشعبية ... ولم يعد البحث العلمى فى هذا المجال عرضا للنصوص واستخلاصا للاحكام وانما أصبح مواجهة واقعية لبيئة ومجتمع ، ومكتبة الجامعة يمكن أن تحتفظ برسالة عن الاغنية الشعبية دون أن تفكر فى الوثائق التى قامت عليها هذه الرسالة وهى صور وتسجيلات صوتية ... وكذلك الحال فى خزائن الكتب العامة :





أما التعريف بالابداع الشعبى على نطاق واسع ، فمن اليسير ان يتوسل الكتاب العربى بالصورة ، ملونة وغير ملونة ، وبالرسم التوضيحى ، وبالعلامات الموسيقية والرموز الصوتية . واذا كانت الطبعات الرخيصة قد زخرت بالتصحيف والتحريف والخطأ ، فانها نهضت بتبعاتها فى المحافظة على حلقات من ادب الشعب والتعريف به وتطويعه للتداول ، وهذه الطبعات هى التى يعود اليها الدارسون والأدباء والفنانون اليوم . ولكن التراث الشعبى يفرض على الكتاب العربى اتجاها آخر .. لم تعد الشعبية ترادف السوقية كما كان الشأن فيما مضى ، ولذلك أثره فى وجوب العناية بأدب الشعب وفنه ، عندما نريد أن نقدمهما الى جماهير الشعب بين دفتى كتاب ... ان هذا الكتاب لا يقل أهمية عن غيره ، واحترامه من احترام الشعب لتراثه ... لابد أن يكون سليما من التزييف ومن التصحيف ومن الامعان فى الخطأ .. ان الشعب لا يعرف الاناقة المبالغ فيها ... انه واقعى ، وكل ما يرجوه أن يفيد من تراثه افادة صحيحة مثمرة ... ومسئولية الكتاب العربى فى التعريف بالابداع الشعبى هى فى نظرنا حجر الزاوية فى التخطيط لثقافة الجماهير فى مجتمعنا الاشتراكى

الدكتور عبد الحميد يونس

المواد الهندسية

تصر

الجزء الأول

تأليف

د . مهندس عبد الكريم محمد عطا
د . مهندس أحمد على العريان

الناشر
عالم الكتب
٣٦٠ ص

عرض :
دكتور مهندس
أنور محمود عبد الواحد

المواد الهندسية هى المواد التى يستخدمها المهندس فى أعماله ، سواء للمنشآت مثل الأحجار والطوب والمواد الأسمنتية والخرسانة والأخشاب والمطاط والزجاج ، أم لصناعة الأجهزة والمكنات والآلات مثل الحديد والألمونيوم والنحاس ، الخ ، أم لصيانة تلك المنشآت والمكنات مثل الطلاء والدهانات والزيوت ، وغير ذلك المواد التى تلزم لاستخلاص وصناعة مواد المنشآت والمكنات مثل الحجر الجيرى لاستخلاص الحديد الخام أو الرمل والزلط فى صناعة الخرسانة ، كذلك المواد التى تستخدم فى توليد الطاقة مثل الماء والفحم والمواد البترولية ومواد الطاقة الذرية .

وتقسم هذه المواد الى طوائف حسب خواصها الميكانيكية والفيزيقية ، وتحليلاتها الكيموية ، واستعمالاتها . فهناك طائفة المواد المعدنية التى تشمل المعادن الحديدية مثل الصلب والحديد الزهر والمعادن غير الحديدية مثل الألمونيوم والنحاس والنيكل والرصاص . وهناك طائفة المواد غير المعدنية التى تشمل مواد البناء مثل الأحجار والطوب والخرسانة والأسمنت والجبس والجير والأخشاب ، ومواد أخرى متنوعة مثل اللدائن (البلاستك) والمطاط والفلين . كذلك نجد طائفة المواد المولدة

للطاقة ، مثل الماء والمواد البترولية المختلفة واليورانيوم . ومثل هذا التقسيم مفيد من عدة وجهات ، فهو يبوب المواد حسب خواصها، كما أنه ييسر دراسة كل طائفة من هذه المواد باختبارات تجرى عليها وتبرز أهم الخصائص التى يجب أن تتميز بها لتصلح فى مختلف الاستخدامات الانشائية والتصنيعية .

ويتعامل المهندس مع هذه المواد فى جميع خطوات عمله لانشاء الاعمال الهندسية والمحافظه عليها. وقيام المهندس بتادية عمله بنجاح وكفاية يتطلب منه معرفة تامة بهذه المواد ، ودراية صحيحة بخواصها المختلفة ، واحاطة بمدى كفايتها لأنواع التحميل التى ستتعرض لها فى المنشأ الهندسى ، وكذلك مدى مقاومتها وصمودها للعوامل التى تتعرض لها مع الزمن، مثل التغير فى درجات الحرارة ، وتقلب الأحوال الجوية ، واختلاف ظروف التشغيل . ويستدعى كل ذلك دراسة القوانين والنظريات التى تتحكم فى تباين خواص المواد تحت تأثير هذه العوامل المتنوعة ، ودراسة المواد نظريا وعمليا بالاستعانة بالبيانات والمعلومات التى تجمعت عن ماهية المواد نتيجة للخبرة العملية خلال السنوات الطوال منذ أن استعملت المواد بطريقة علمية لسد الاحتياجات العمرانية فى مختلف الأعمال الهندسية ومنشآتها . ويستدعى أيضا متابعة النشاط العلمى والبحوث التى تجرى على المواد ، بالاضافة الى اجراء البحوث للتوصل الى حل المشاكل التى تواجه المهندس اثناء استخدامه للمواد فى الأغراض التى يتطلبها التقدم السريع فى الحضارة والعمران .

وفى الواقع ، فان هذا الكتاب لا يتحدث عن المواد الهندسية فى حد ذاتها ، ولكن يتناول علما وثيق الصله بهذه المواد ، هو علم مقاومة المواد واختبارها . فعندما يشرع المهندس فى اختيار المواد التى تصلح للمنشا الذى يقوم بتصميمه ، فان اهتمامه الأساسى يوجه الى خواص هذه المواد حتى يطمئن الى سلامة المنشأ سلامة تامة طوال استخدامه مهما امتد عمر هذا الاستخدام .كذلك فانه ينظر أساسا الى هذه الخواص عند تصميم وصناعة المكنات ، وفى الاعمال الهندسية المدنية أو المعمارية او الميكانيكية أو الكهربية أو الكيموية ، سواء فى مراحل الانشاء أم الصيانة . وعلى ذلك يتضمن علم مقاومة المواد واختبارها دراسة خواصها الميكانيكية والكيموية والفيزيقية ، وماتتعرض له المنشآت والمكنات من «اجهادات» و « انفعالات » تحت تأثير الأحمال الساكنة والمتحركة والمتكررة . كما يتضمن الاختبارات اللازم اجراؤها على المواد الهندسية للتحقق من صلاحيتها للأعمال المختلفة ولتعيين خواصها المتنوعة ولبيان مدى تحملها مع الزمن . ومن الطبيعى أن تتطلب هذه الدراسات استخدام مكنات واجهزة لاختبار المواد الهندسية فى المعمل او فى موقع العمل . ويدخل توصيف هذه المكنات والاجهزة كذلك فى علم مقاومة المواد واختبارها . لابد للمهندس اذن ان يكون على المام تام بهذا العلم ليقوم بتلك الدراسات او لتحديد وجهة النظر الاقتصادية فى استعمال المواد الهندسية بالنسبة لبعضها البعض عند استخدامها فى العمل الواحد أو فى الأعمال المختلفة ، أو لاجراء البحوث التى تستهدف تحسين خواص المواد الهندسية المعروفة أو للحصول على مواد مستحدثة .

ويمكن القول بأن خواص المواد هى المقاييس المحددة التى تصف جودة المواد وكفايتها ، وتعتبر اللغة التى يوضح بها المهندس اشتراطاته فى المادة التى تقاوم الأحمال والكسر والتفتت والتفاعلات الكيموية والقوى المختلفة التى ستتعرض لها . وكل عمل هندسى يتطلب مواد يجب أن تتصف بخواص معينة بصفة أساسية . فأجزاء الطائرات تتطلب أساسا

مواداً خفيفة الوزن ، والسلاسل تستلزم مواداً تقاوم الكسر ، والاعمدة الخرسانية لابد ان تصنع من مواد تقاوم الضغط الواقع عليها ، وانابيب المراجل يجب أن تصنع من مواد توصل الحرارة وفى نفس الوقت تصمد لها فلا تتآكل أو تتشوه .

والتباين بين خواص المواد المختلفة معروف وواضح . ولكن الأعمال الانشائية والتصنيعية لا يمكن ان تكتفى بهذه المعرفة ، فمن الملاحظ انه لا توجد قطعتان مصنوعتان من مادة واحدة لهما نفس الخواص تماما وبمنتهى الدقة . ويرجع ذلك الى عوامل عديدة تتعرض لها المادة أثناء صنعها ، أو نتيجة لعمليات التشكيل التى تجرى عليها ، أو لعوامل الزمن والتغير فى الحرارة والرطوبة وما الى ذلك . بل قد تختلف الخواص فى نفس القطعة الواحدة لعدم الانتظام فى المادة ذاتها وبذلك تكون لها خواص متفاوتة فى اتجاهاتها المختلفة . ومن الواضح اذن ان الاستخدام الصحيح للمادة يتطلب من المهندس معرفة الحدود التى تتغير الخواص فى نطاقها أثناء مدة استخدام المنشأ ، كما يتطلب منه التحكم فى هذه التغيرات .

ولما كان تحمل المادة للقوة أو الحمل المؤثر عليها فى الانشاءات أو المكنات المختلفة هو العامل الأساسى لها ، لذلك نجد أن مقاومة المادة لهذه القوى أو الأحمال لها أهمية كبرى . فالقوة المناسبة هى المطلب الأول لأية مادة هندسية . وينظر المهندس الى قوة المادة على أساس مقاومتها للانهيار . وهذا هو المقياس الطبيعى الذى يتبادر الى الذهن لتحديد مثل هذه القوة . فاذا اختبرت قطعة صحيحة كاملة من المادة ، أو اذا اختبر جزء صغير منها يمكن مشاهدة الانهيار اما بحدوث كسر أو بملاحظة كثير من التغيرات التى تطرأ عليها .

ولكى نكون على معرفة دقيقة بمادة من المواد يجب تدارس خواصها فى ظروف متباينة واسعة النطاق ، للتأكد من الحصول على معلومات دقيقة وافية عن هذه الخواص التى تؤثر على القيمة الاقتصادية لهذه المادة . ولقد رأينا أن كفاية مادة ما لاستعمال معين تعتمد اعتمادا كاملا على مدى وجود الخواص المتعلقة بهذا الاستعمال فيها . فقد تكون خاصة معينة فى استعمال بعينه مرغوبا فيها بصورة أساسية، وقد لا تكون كذلك فى استعمالات أخرى .

واهم الخواص التى يهتم بها المهندسون ، هى الخواص الميكانيكية للمواد . ويمكن تعريفها بأنها الخواص التى تتعلق بسلوك المادة عند تعريضها للأحمال المؤثرة عليها ، سواء أكانت هذه الأحمال ساكنة أو متحركة أو متكررة . فالمبانى مثلا تتعرض أساسا لأحمال ساكنة ، فى حين تتعرض الكبارى لأحمال ساكنة هى أوزانها، ولأحمال متحركة ومتكررة هى المركبات والقطارات والمشاة وغير ذلك مما يمر عليها .

ثم هناك الخواص الفيزيقية ، مثل الأبعاد والشكل والمسامية والتمدد والمقاومة الكهربية والتوصيل الحرارى، الخ ، والخواص الكيموية مثل التركيب الكيماوى للمادة ومقاومتها للصدأ والتآكل،والخواص البصرية مثل اللون وانكسار الضوء او امتصاصه أو انعكاسه ، والخواص الصوتية مثل التوصيل أو الانعكاس الصوتى. وغير ذلك خواص اخرى عديدة .

وتحدد كل هذه الخواص للمواد الهندسية باجراء تجارب واختبارات عليها . ويدلنا التاريخ الى ان ابتداء التجارب على المواد باكملها حدث فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وذلك لاحتياج المهندسين فى ذلك الوقت لمبان اكثر ارتفاعا من ذى قبل . ومع مطلع القرن التاسع عشر ابتدأ علم اختبار المواد فى النهوض العظيم نتيجة لما بذل من جهود فى عمل التجارب والتحاليل عليها ، رغم ان التجارب كانت تجرى على المنشأ بأكمله بدلا من اجرائها على عينات منه كما يحدث الآن للتأكد من صحة التصميم وخواص المواد المقترح استعمالها فيه قبل الشروع فى بنائه وتركيبه . ولقد انشئت أول جمعية دولية للمواد عام ١٨٨٤ ، وكان الغرض من انشائها بحث طرق واساليب اختبار المواد ، وضبطها ، وجعلها ثابتة وموحدة بقدر الامكان .

ولقد تطور علم اختبار المواد تطورا عظيما خلال القرنين التاسع عشر والعشرين . ويرتكز

هذا العلم على عدة عناصر ، منها فن الاختبار ذاته ويشمل كيفية تشغيل الآلات والمعدات المستخدمة فى الاختبار ، والتحديدات التى يحتمها الجهاز للنتائج التى يمكن الحصول عليها ، ومنها الأسس الطبيعية والميكانيكية فى طرق الاختبار، وتتناول مدى استيفاء هذه الطرق للاشتراطات المطلوبة ، والأخطاء المحتمل حدوثها ، وأوجه النقص الظاهرة التى يمكن التغاضى عنها والتحسينات الممكنة للحصول على ادق النتائج . كما يرتكز علم اختبار المواد على القياسات التى تحدد مدى دقة وكفاءة النتائج . ومن الواضح ان بذل الوقت والجهد للحصول على قياسات صحيحة دقيقة من أهم الأمور فى اختبار المواد ، والا كانت النتائج مضللة وقد تؤدى الى عواقب وخيمة . ويبحث علم اختبار المواد فى ماهية نتائج الاختبار ، وماتعنيه ، ومدى امكان تطبيق النتائج المعملية أو العددية على الحسابات التصميمية للمنشأ. فمن الطبيعى ان التجارب التى تجرى فى المعامل وعلى عينات ونماذج محدودة الحجم والعدد لا تمثل بالضرورة وفى جميع الحالات النتائج التى نحصل عليها عند استخدام المنشأ استخداما فعليا ، مع مايحيط بذلك من ظروف وعوامل قد يكون بعضها معروفا ومحدد ، وقد يكون بعضها الآخر غير معروف أو غير متوقع.

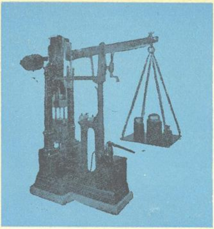
وكل هذه الاختبارات يجب أن يهتم بها المهندس لأن من مهامه الرئيسية ضرورة التأكد من ان المواد المستخدمة فى المنشآت والمكنات لا تتعرض لأى نوع من أنواع الانهيار فى جميع ظروف التشغيل المحتملة . ولا تقتصر اهمية الاختبارات على مثل هذا المهندس فحسب ، بل هى تهم كذلك كلا من منتج المادة ومستهلكها. فالمنتج يهمه الحصول على طرق معتمدة لمعرفة جودة منتجاته ، والمستهلك يهمه الاطمئنان الى سلامة هذه المنتجات وانها مطابقة للاشتراطات المحددة الموضوعة .

ويمكن تقسيم اختبار المواد من حيث أمكانية استخدامها الى اختبارات متلفة واختبارات غير متلفة . فاذا أجرينا الاختبار بكسر عينة من مادة ما تصبح العينة بعد الاختبار غير صالحة لأداء عملها بالمنشأ لأنها أتلفت باجراء الاختبار عليها. ويلزم عند اختبار المنشآت أو المنتجات المنتهية عدم اتلاف أى جزء منها ، لذلك تجرى عليها اختبارات غير متلفة تقوم خواص المادة دون أن تعرضها لتشويه أو تلف ، كما هى الحال فى الاختبار بالأشعة السينية أو بالموجات فوق الصوتية .

ولقد اشرنا الى ان خواص المواد لا تتصف بالجودة أذا بينت بأرقام واعداد فحسب فهذه الأرقام تعبر فقط عن مدى تحمل هذه المواد ، وهى فى الواقع مجرد مقاييس او دلالات او ايضاحات للخواص التى وجدت عند اختبار عينة من المادة فى ظروف معينة . والمعنى الحقيقى لأى اختبار معملى يتوقف على الحد الذى يجعلنا نعرف سلفا مدى صلاحية المادة للاستعمال ، وفى أحسن الحالات يكون الاختبار المعملى دليلا مباشرا لما يمكن أن نتوقعه من نتائج عند الاستخدام الفعلى للمنشأ أو الآلة .

وتتوقف كفاءة المنتجات أو دقة تنفيذ العمليات الانشائية على دقة وسلامة الاشتراطات المحددة لها . وتبنى هذه الاشتراطات على الخبرات والتجارب والاختبارات السابقة التى تكونت مع الوقت فاصبحت القاعدة الأساسية التى يمكن الاطمئنان اليها فى المنتج أو العملية الهندسية . وتدرج هذه الاشتراطات فى مواصفات يضعها عادة المستهلك للمنتج ، أو صاحب العملية الهندسية لمن يعهد اليه القيام بها ، وتحوى المواصفات الاشتراطات التى تتعلق بطرق الصناعة المستخدمة ، والتى تتعلق بالشكل والأبعاد والانجاز النهائى ، وتتعلق كذلك بالقبول والرفض والتحكيم ، وغير ذلك .

قلنا أن علم مقاومة المواد الهندسية واختبارها هو موضوع هذا الكتاب . ونرجو أن نكون قد قدمنا للقارىء العربى فى هذه الخلاصة تعريفا بهذا العلم الحيوى الهام فى المجال الهندسى . ونرجو أن يكون ذلك عونا له على الالمام بدور هذا العلم الذى يسير جنبا الى جنب مع تطور الحياة وتبلور احتياجاتنا فيها ،



والذى مكن الانسان من ان يتحرر من جاذبية الأرض ليتخذ من الفضاء مدارا له حولها . وليس من شك ان علم مقاومة المواد واختبارها يلعب دورا اساسيا فى تقدم الأمم ، ومن هنا تتضح الأهمية التى توجهها الأمم المتقدمة لهذا العلم جنبا الى جنب مع ما وصلت اليه فى مجالات التعرف على دقائق المادة وخواصها .

ونعتقد أن تناول المضمون العلمى البحت لهذا الكتاب يخرج من نطاق مثل هذا المقال . ويكفى أن نشير الى أن أبوابه التسعة تتضمن التعريف بالمواد الهندسية ، وخواصها واختبارها . وتتضمن كذلك مكنات اختبار هذه المواد . والباب الثالث مخصص لمقاييس الانفعال ، وهى الأجهزة المستخدمة فى قياس الشكل الطولى ، اى طول قياس معين أثناء تحميل المنشأ او المكنة او عينة الاختبار . ويخصص كل باب من الأبواب الأربعة التالية لدراسة سلوك المواد الهندسية تحت تأثيرات الشد الساكن ، والضغط الساكن ، والانحناء الساكن ، والقص الساكن . ويتناول الباب الثامن صلادة المعادن . وصلادة اى معدن هى الخاصة التى تمكنه من الاحتفاظ بشكل سطحه سليما متماسكا تحت تأثير الأحمال ، وقد تعرف بأنها مقدرة سطح المعدن على مقاومة علامة به أو مقاومة تآكله نتيجة الاحتكاك . ويختتم هذا الجزء الأول من الكتاب بفصل عن اختيار عامل الأمان لاجهادات التصميم . وتتضح اهمية اجهادات التصميم اذا عرفنا أن هذه الاجهادات يلزم أن تكون أقل من الاجهادات المعينة معمليا حتى تتهيأ للمنشآت والمكنات عوامل الأمان والسلامة طوال مدة استخدامها أو تشغيلها الفعلى ، وذلك لأن التحميل الفعلى قد يختلف عن أحمال الاختبارات المعملية بالاضافة الى احتمال ظهور عيوب غير منظورة ببعض الوحدات .

والجهد الذى بذله المؤلفان الفاضلان فى تصنيف وتأليف هذا الكتاب واضح بل رائع . فكلاهما قد قضى زهرة العمر فى تدريس علم مقاومة المواد واختبارها والبحث فيه . وكلاهما مثل رفيع لما يجب أن تكون عليه الأساتذية الصحيحة من تمكن علمى ، ووقوف على كل جديد فى هذا العلم الهندسى الهام ، ثم تمتع بمرونة الاتصال العقلى والنفسى مع مئات من أبنائهم طلبة كليات الهندسة بالجمهورية . ولا نبالغ فى شىء اذ نقول ان هذا الكتاب — ونرجو ان يصدر جزؤه الثانى فى أقرب وقت — هو من معالم التأليف الهندسى باللغة العربية . وهى معالم نرجو أن تتصل وتتسع لتشمل كافة العلوم الهندسيه ، لا أن تكون مجرد أضواء هنا وهناك ينيرها كل من يتصف بانكار الذات والجهد الوطنى الذى يؤدى فى ثقة وهدوء . ونحن نوجه التحية والشكر للأستاذين الكريمين ونحن نعلم أن هذا لن يزيدهما الا اصرارا وعزما على المضى قدما فى مضمار التأليف الهندسى العربى ، مهما كلفهما ذلك من جهد تكاد تنوء به عزائم الرجال . ولكنه البعث العظيم ، والثورة الحقة التى يجب أن يتجه اليها أولا وأساسا رجال العلم . فاذا كان الانتاج هو أول بند من بنود الفلسفة كما يقول بصدق وحق رئيسنا جمال عبد الناصر ، فان نتاج الفكر هو أروع وأرفع مثال من أمثلة الانتاج ، وهو هنا فى هذا الكتاب يتسنم الذروة التى يحق لنا أن نسجلها بالاعزاز والشكر .

دكتور مهندس أنور محمود عبد الواحد

شئون عربية

اليمن

نص



تأليف

هانز هولفريتز

الناشر

مكتبة الانجلو المصرية

عدد الصفحات ٢٣٦ صفحة

عرض ونقد : محمود محمود

تعريب وتعليق : خيرى حماد

ظلت اليمن بالنسبة الينا نحن ابناء الجمهورية العربية المتحدة بلدا مجهولا لا نعرف عنه الا النزر اليسير ، وكأنه يقع فى عالم غير عالمنا ، نحيك حوله الاساطير الخرافية ، والقصص الخيالية التى لا تتفق فى شىء مع الواقع .

فلما اشتد الوعى بالقومية العربية منذ بداية النصف الثانى من هذا القرن تطلعنا الى معرفة اجزاء هذا الوطن العربى معرفة تقوم على اساس من الحق والواقع . فاشتد اتصالنا بكل قطر من الاقطار العربية عن طريق الرحلة والمشاهدة ، والاطلاع على ماكتب عن هذه البلاد قديما وحديثا ، وامست اليمن فى اعيننا واقعا تاريخيا وجغرافيا، واخذت اواصر الاتحاد مع هذا الجزء من الوطن العربى تتوثق شيئا فشيئا ، وتزداد يوما بعد يوم .

وقد كان من حسن حظى ان اوفدتنى الحكومة فى شهر يونيه من عام ١٩٦٣ لدراسة الحالة العلمية والثقافية فيها ، ومقابلة المسئولين هناك عن هذا القطاع من حياة الناس ، لعلنا نستطيع

من الباب الخلفى

يتبادل الرأى والمشـــورة ان ننهض بالتعليم فى اليمن ، وان نرفع من مستوى الثقافة فيها بعد ما تخلفت فى هذا الميدان قرونا عديدة • ومنذ ذلك التاريخ واليمن بلد حبيب الى نفسى وواقع حى فى ذهنى •

واشتد اهتمامى بكل ما يروى ويكتب عنه ، وكان من بين ما وقع بين يدى كتاب « اليمن من الباب الخلفى » الذى ألفـه الكاتب الألمانى هـانز هولفريتز ، فى عام ١٩٥٩ ، ونقله الى العـربية وعلق عليه الكاتب العربى خيرى حمـاد فى عام ١٩٦١ ، واشهد ان المعرب قد وفق كل التوفيق فى عرض الكتاب بصورة حية شائقة وباسلوب عربى رصين •

ويقول خيرى حماد عن المؤلف فى مقدمة الطبعة الاولى ، انه بطبيعته الالمانية الصميمة ولبعده عن الاهداف الاســتعمارية فى هذا الجـزء من الوطن العـربى يحـاول ان يكون موضـوعيا الى اقصى الحدود فى سرده للتجارب التى مر بها اثناء رحلاته خلال اليمن ، وفى وصفه للاشياء التى شاهدها بنفسه او مارسها اثناء رحلته • بيد انه — برغم هذا — شأنه شأن غيره من كتاب الرحلات ، كثيرا ما يخرج عن هذه الموضوعية ، ارضاء للميل الى الحديث عن كل ما هو عجيب وغريب ، واشباعا لهواية وصف الشرق بانه بلاد العجائب والغرائب، فيورد قصصـا من نسج الخيـال خلال الوصف الموضـوعى ويسرد كثيرا من الآراء التى تتسـم بالغلو والمبالغة •

والكتاب فى جملته لا يتحامل على العرب ، ولا على اليمن بصورة خاصة ، كغيره مما كتب أهل الغرب ، فقد احب مؤلفه الشعب اليمنى ودافع عنه فى كثير من المواقف •

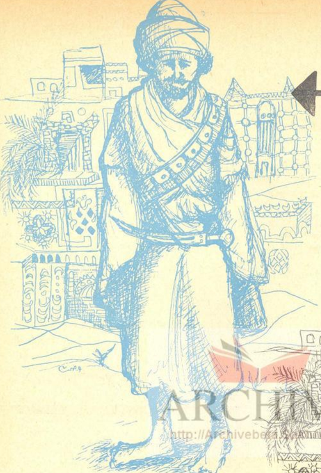
غير ان اليمن التى يتحدث عنها المؤلف فى عام ١٩٥٩ ، اليمن فى عهد الامام يحيى ، وبداية عهد خلفه الامام احمد ، هى اليمن قبل ثورتها فى عام ١٩٦٢ ، قبل نهضتها الاخيرة التى تعاونها فيها الجمهورية العربية المتحدة •

ومع ذلك فالكتاب غنى بما فيه من لمحات عن تاريخ اليمن ووصف ارضها وطبيعتها ، ومناخها وقبائلها وطرقاتها ، وزراعة البن فيها ، وموسيقاها واحتفالاتها واعيادها ، والاحوال الاجتماعية فيها ، وصناعاتها ، وطرائق معيشتها واتجاهات الفكر فيها •

واذن فاليمـن التى يصـورها المؤلف هى كما يقول المعرب فى مقدمة الطبعة الثانية للكتاب التى صدرت فى يوليه١٩٦٦ تاريخ لعهد مضى وانقضى، وصورة لما كان يسود هذا الجزء العزيز من الوطن العـربى فى عهد الائمة البائد ، الذى زال ولن يعود ، من اوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية

وفى الفصل الاول من هذا الكتاب الذى يطلق فيه المؤلف على اليمن « العربية السـعيدة » كما كان يسميها الرومان يذكر الكاتب ان هذا الجزء من العالم قد نمت فيه حضارة قديمة لها فى التاريخ شـأنها ، وان البحث عن بقايا هذه الحضـارة ، والتنقيب عن كنـوزها الثمينـة ، قد يبلغان من المتعة والاثارة ما بلغه التنقيب عن الآثار فى مصر او بابل • ولكن ثمة عدة اسباب ادت الى التقاعس فى هذا السبيل ، والى بقاء البلاد العربية مجهولة للعالم الغربى حتى عهد قريب •

اليمن من الباب الخلفي





ومن هذه الاسباب اختفاء البلاد العربية من الافق الاوربى بعد انهاء الحروب الصليبية التى مثلت التصادم الشديد بين المسيحية والعالم الاسلامى .

ومنها وجود عقبات لا يمكن تحطيمها فى طريق اكتشافها ، واول هذه العقبات قيام سلاسل من الجبال الساحلية فى البلاد العربية تخفى وراءها صحارى شاسعة ، او مساحات واسعة من الاراضى شبه الصحراوية ، وعبور مثل هذه

الفيافى التى يندر فيها الماء مهمة شاقة لا يمكن تحقيقها الا عن طريق مساعدة الاهلين، وهؤلاء من البدو القبليين الذين يرون فى كل غريب عدوا لهم يخشون بأسه ولا يطمئنون اليه • وهنا يشتط المؤلف فى حكمه على عداوة العرب للاغراب ، ويرجعها الى الاسلام الذى ينعته بانه دين كثير الانطواء على نفسه • ولم يفت المعرب ان يرد على هذه الفرية فدفع عن الاسلام هذه الصفة ، صفة الانطواء ، وقال عنه انه دين التفتح ، لا فى معتقداته فحسب ، بل وفى العلاقات الاجتماعية التى يدعو اليها •

ومهما يكن من امر فهذه بعض الاسباب التى جعلت قلة من الرواد فى قضية المعرفة هم الذين يفلحون فى النفاذ الى باطن الصحراء العربية ، التى ظل الجانب الأكبر منها بعيدا عن اعين المكتشفين •

ولبثت الحال على ذلك حتى اندلع لهيب الحرب العالمية الاولى ، فتبدلت الاوضاع ودخلت البلاد العربية فى دائرة المعرفة ، وحاربت القوات الاوربية لاول مرة على التربة العربية من جديد ، بعد الحرب الصليبية ، واتصل هذا الجزء من العالم بالعالم الغربى وهب العرب من سباتهم ، واخذوا يسايرون الركب فى يقظة شديدة وتنبه الى ما يجرى فى كل ركن من اركان الارض •

وظهرت مرة اخرى طاقة الاسلام على التجدد، وعلى اكساب اهله قوة فى النضال ، وحيوية فى الانشاء والتعمير •

واليمن ركن من اركان هذا العالم العربى ، وقد اطلقت عليها التوراة اسم « العربية الغنية »، كما تعرف ايضا باليمن السعيدة ، اذ حبتها الطبيعة بخيرها واضفى عليها التاريخ شهرة وبروزا •

ولكن اليمن لبثت حتى قيام المؤلف برحلة فيها ووصفه لها فى كتابه هذا من اشق بلاد العالم على التسلل والاختراق • ولم يكن يسمح للاجنبى حتى ان دخل البلاد ان يتوغل فيها الى ما وراء عاصمتها صنعاء •

ولكى يستعد المؤلف لارتياد البلاد اطلع أولا كما يقول على لغة العرب وعاداتهم ، وقام بعدة رحلات فى مصر والعراق وفلسطين ، وتعرف بعد ذلك الى احد سلاطين العرب الذى يحكم احدى الامارات العربية فى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، كما تنقل فى حضرموت — وهى البلاد التى تجاوز اليمن من ناحيتها الشرقية وتمكن اثناء اقامته بها من القيام بعدة اتصالات كانت له عونا كبيرا فى مغامراته التالية •

وكان المؤلف يستهدف اليمن — البلاد المحرمة — منذ البداية • وقد هبط فى زيارته الاولى لها ميناء الحديدة ، ومنها اتجه الى صنعاء ، عاصمة البلاد ، وفيها اقام فترة طويلة • بيد ان جميع محاولاته للتوغل فيما وراء صنعاء قد منيت بالفشل ، فقد رفض الامام ان يسمح له بذلك ، وتحتم عليه ان يعود من نفس الطريق التى جاء منها ، وان يرجع الى بلاده ، بزاد من المعرفة لا يشفى •

هذه هى الرحلة الاولى الفاشلة التى دخل فيها المؤلف اليمن من بابها الأمامى ، من مدخلها الطبيعى ، من ميناء الحديدة •

وهو رجل مغامر قوى الارادة لا تلين قناته بسهولة • فصمم على ان يدخل اليمن مرة اخرى من بابها الخلفى ، من ناحيتها الصحراوية الشرقية ، وكان ذلك بعد انقضاء عام من رحلته الاولى •

وقد قام بهذه الرحلة السرية وحيدا ، لايحمل سلاحا ، غير انه تزود بجميع الوسائل السلمية للبحث العلمى العصرى ، من آلة تصوير للافلام، وجهاز تصوير عادى ، ومسجل للاصوات ، الى غير ذلك من معدات • وكان هدفه من الرحلة الحصول على اكبر مجموعة ممكنة من الوثائق عن اهل تلك المناطق واعمالهم ، وطبيعة بلادهم ، وفنونهم ، وحياتهم اليومية، ورقصهم وموسيقاهم

ومن الدراسات التى قام بها المؤلف لهذا البلد السعيد يتنبأ له بالاتصال بالحضارة الحديثة ، والخروج من عزلته • وقد صدقت نبوته ، فقد ثارت اليمن على ماضيها المتخلف ، وعلى الامامة الرجعية ، وها هى ذى تخطو خطوات واسعة نحو التقدم والنهوض فى ظل حكمها الجمهورى الثورى

ويتدفق المؤلف تدفقا فى وصف هذه الرحلة السرية التى دخل فيها اليمن من بابها الخلفى فى الصحراء التى تقع فى شرق البلاد • وهى البلاد

اليمن من الباب الخلفي

ذات الشهرة القديمة فى التاريخ ، حتى لقد استهوت الاسكندر الاكبر ان يقيم فيها بعد فتح الهند . وقد ظلت بوصفها بوابة الشرق مطمح الغزاة الفاتحين ، يأتونها من الشمال والشرق والغرب ، ومعهم اساطيلهم القوية الضخمة ، غير ان أيا منهم لم يفلح فى فتحها فتحا تاما مبينا ، حتى الاتراك الذين احتلوها احتلالا اسميا مدة أربعمائة عام منذ عام ١٥١٧ .

ولما كان دخول اليمن من الحديدة ، من بابها المشروع ، قليل الجدوى ، لانه لا يمكن الرحالة او السائح من رؤية شيء منها على حقيقته ، لانه يقع تحت الحراسة المشددة ولا يسمح له بالتجول فى البلاد الى ما وراء صنعاء ، كما حدث للمؤلف فى الرحلة الاولى ، فقد اعتزم هذه المرة ان يعدل من خطته ، فلم ينزل من السفينة التى كان يستقلها فى البحر الاحمر فى ميناء الحديدة ، وواصل السفر على ظهر المركب حتى عدن ، ومنها — بعد مشقات كبرى ، استمر فى رحلته حتى المكلا على الساحل الجنوبى من شبه الجزيرة العربية ، ومنها دخل حضر موت ، وفى كل ذلك يصف المؤلف طبيعة البلاد وصفا شعريا شائقا ، ويطلق على حضرموت اسم بلاد البخور والعطور ، ويتحدث عن حضارتها القديمة ، وعن امرائها ، وحكم الشورى فيها ، وعن حياة البذخ التى يتمرغ فيها الامراء .

ثم اراد من حضرموت ان يدخل اليمن . وهو فى هذه الرحلة بحاجة الى دليل ، وكان ذلك حينئذ امرا عسيرا ، لان اليمن لم تكن مع حضرموت على علاقة حسن حوار طيبة ، ولم يكن يسمح للحضرمى ان يدخل اليمن . فظل يبحث عن دليل من اهل اليمن يكون قدجاء الى حضرموت فى شان من الشئون ويعتزم العودة الى بلاده .

وبينما هو فى هذا الدليل استطاع ان يدرس احوال العيش فى حضرموت ، التى تدهورت مع مرور الزمن ، وهجر القسم الاكبر من اهلها ، واكثرهم كدا ونشاطا ، البلاد الى جزر الملايو الهند الشرقية منذ عهد طويل ، واستوطنوها ، واقاموا فيها جاليات عربية ضخمة . ويؤلف الحضارمة المسلمون عنصرا كبير الاهمية بين سكان جزيرتى جاوة وسومطرة . ونداء الهجرة الى الاصقاع النائية قوى عند العرب ، كقوته عند الأقوام النوردية الشمالية . فقد وصلوا قبل الاوروبيين بعهد طويل الى افريقيا ، والى الشرق الاقصى ، وأقاموا امبراطوريات عاشت قرونا عدة . ومن المهم بصفة خاصة ان النفوذ العربى فى أفريقيا الوسطى مازال آخذا فى الازدياد حتى يومنا هذا .



ومما لاحظه المؤلف فى حضرموت ان فنون البناء القديمة شديدة الشبه بها فى خرائب مايسينى ، وهى من المدن الاغريقية القديمة ، ويهيب صاحب الكتاب بالمؤرخين وعلماء الآثار ان يدرسوا العلاقة بين حضرموت القديمة والحضارة الاغريقية لما لمسه بنفسه من تشابه شديد بين الحضارتين .

كما يلاحظ المؤلف شبها فى التقاليد الدينية القديمة فى حضرموت وتقاليد اهل سكسونيا السفلى ، فهنا وهناك يثبت الناس قرون الوعول فى زوايا بيوتهم .. وربما كان ذلك لان الوعل كان قديما يعد من الحيوانات المقدسة ، كما يدل على ذلك كثير مما عثر عليه فى مذابح السبئيين فى قديم الزمان .

وطال العهد بصاحب الرحلة فى حضرموت ، وكاد ان ييأس من القدرة على دخول اليمن ، وحل فصل الصيف بجوه القائظ ، وكادت اشهر الحر ان تبلغ ذورتها مما يجعل عبور الصحراء امرا مستحيلا . ولكن عزيمة الرجل لم تهن وقرر الاستمرار فى المحاولة ، وواصل البحث على دليل من اهل اليمن .

وأخذ يتجول فى الربع الخالى يرافقه رجل من

أهل البـدو • وفى احدى القرى اختطفه بعض العرب وسـاروا به فى احدى السيارات ، وهو يجهـل ما يراد به • وفى أثناء الطريق خاطبه أحدهم قائلا : « انك أجنبى ، وألمـانى ، واذن فأنت مهندس • وستتولى اصلاح مضخة لنا ، وقد توقفت عن العمل منذ سنتين ، ولم يعد فى وسعنا أن نحصل على الماء » •

وعبثا ما حاول أن يقنعهم بانه ليس مهندسا ، وانه لا يفهم شيئا عن المضخات • غير ان الناس فى هذه المنطقة يعتقدون ان كل أوربى يرود هذه البلاد اما أن يكون مهندسا او طبيبا • ومن ثم كان رواد هذه البلاد من الاوربيين كثيرا مايحملون معهم العقاقير التى تنفع ولا تضر يعطونها للمرضى الذين يتقدمون اليهم للعلاج •

ولـما بلغ الرحالة الالمـانى المضخة ، حاول اصلاحها بما لـديه من علم يسـبر عن حركة الآلات ، واستطاع فعلا أن يتم اصلاحها ، وأن يجعل الماء يسيل منها ويتدفق ، فاحتشد أهل القرية صغارا وكبـارا ليروا هذه المعجزة التى حققها الرجل الالمانى •

وفى احدى قرى حضرموت التقى هذا الرجل الالمانى بجماعة من اليمانيين جاءوا فى تجارة الى حضرموت ، فعرض عليهم أن يستخدم أحدهم دليلا له يقوده الى رحلة فى اليمن • غير ان أحدا منهم لم يقبل القيام بهذه المهمة فى بداية الامر ، اذ ان المسئولية أضخم من أن تحتمل • ذلك لان شريعة البادية تنص على ان البـدوى مسـئول بحيـاته أمام قبيلته كضمان لسلامة أى غريب يكل حمايته اليه ، وقد عرفت المنطقة التى كان يريد اجتيازها فى الطريق الى صنعاء بعداء أهلها لكل رجـل أبيض البشرة • وأخيرا بادر رجـل ضئيل منهم يدعى صالح فاعلن استعداده للقيام بدور الدليل ، وقد اشرك معه أخاه مبارك ليكونا فى رفقة الكاتب فى كل حين •

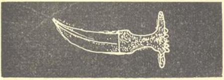
واستغرق عبور الصحراء ثلاثة أسـابيع كان يحط رحاله فيها فى القرى المتفرقة، ويمر بصغار الامراء الاقطاعيين ، ويرى المؤلف انسيطرة هؤلاء الامراء آخذة فى الذبول مهما تمسكوا بمظاهرها، فالاتجاه شديد فى الخليج العربى نحو الوحدة العربية ، وعلى جميع هؤلاء الامراء الصغار ، ان عاجلا أو آجلا ، أن يستسلموا لهذا الاتجاه ، كما وقع فى الغرب تماما ، الا اذا كان ما يلقونه من تأييد من بعض الدول الاجنبية سيعطيهم جرعة مقـوية مصطنعة تمكنهم من العيش وقتـا ما • وواضح ان المؤلف صادق كل الصدق فى هذا الرأى الذى ارتآه ••

وقد اتخذ الكاتب لنفسه اسم عبد الله لكى يتقى بعض مخـاطر هذا الطريق الصحراوى ، الذى تكثر فيه عصابات اللصوص والشحاذين • وفى وصف المؤلف لهذه الرحلة التى عبر فيهـا الربع الخالى يلاحظ عادات الجمـال أثناء السـير ملاحظة دقيقة ويعطينا عنها صورة واضحة •

وكان الهدوء الشامل يسود الصحراء ، فأمكن لصاحبنا أن يفهم لماذا يتحرر المرء هنا من روابط الوجود الانسانى ، ولماذا وصلت مفاهيم سكان هذه المنطقة عن الله منتهى الصفاء والنقاء ، ولماذا قامت ديانتان من أعظم ديانات العالم ، فى مكانين قريبين من بعضهما كل القرب من هذه المنطقة •

وبعد جهد شاق تعرض فيه المسافرون لقحط المـاء ، وقلة الزاد ، وعداوة العرب ، وهجمات اللصوص ، وصل الرحالة الى وادى بيحان وهى أول هدف له بعد الصحراء •

ووادى بيحان غنى بالآثار القديمة التى تستحق الدرس • وقد اشتهر سلطانها بعمالته للاستعمار البريطانى، ووضع نفسه بعد ثورة اليمن المباركة تحت تصرف السلطات البريطانية لمحاربة الثورة ومناوءتها •



وممـا يستحق الذكر ان التاريخ يثبت قيام أربع امبراطوريات عظيمة على التتـابع فى هذه المنطقة بين القرن التاسع قبل الميلاد والثالث بعد الميلاد ، وهى امبراطوريات معين وقحطان وسبأ وحضرموت •

واقتربت القافلة من حريب أول المدن الهامة فى اليمن من هـذه الناحية • واذن فقـد نجح

اليمن من الباب الخلفي

صاحبنا الالماني في دخول الارض المحرمة من بابها الخلفي .

وتحت حراسة مشددة اتجه نحو حريب ، والتقى بعـاملها الذي طلب اليه أن يطلعه على رسالة الامام التي يسمح له فيها بدخول اليمن . ولما لم يكن لدى الرحالة تصريح من الامام فقد قاده الجند الى السجن ، وأخذ منه جواز السفر لكي يرسل الى الامام في صنعاء ليقر فيه مايرى .

وفي انتظار التصريح سمح للكاتب بالتجول في حريب . وفي الساعة الخامسة مساء شهد حشدا من الناس ، وعلم منهم انها ساعة تناول القات ، وهي ساعة يحترمونها هناك كل الاحترام كما يحترم الغربيون ساعة الشاي . ولا غنى لأهل الجنوب العربي عن القات مطلقا . وهو من المخدرات . ولكن أهل اليمن يسمونه اكسير الحياة . واستهلاك القات عادة شائعة شاملة ، اذ يتعاطاه الرجال والنساء والاطفال دون تمييز من الملك الى السلاطين والى الفقراء والشحاذين ، طالما يتوفر لديهم المال لابتياع هذه المادة الثمينة . وكثيرا ما قيل ان في وسع أهل اليمن الصيام أياما عدة بسهولة ، ولكنهم لا يستطيعون البقاء يوما واحدا بدون القات .

ونبات القات الذي يستخرج منه هذا المخدر شجيرات صغيرة لاتزهر ، ولها أوراق فاتحة الخضرة ، وتزرع هذه الشجيرات في المناطق الجبلية في أعالي اليمن وزراعته من الاتساع ، بحيث لا تقل زراعة المنزرع عن مزارع البن ، على الرغم من ان القات لا يصدر الى الخارج ، وانما يستهلك محليا .

ويقول أحد مفكري اليمن « ان القات نعمة من نعم الله . فنحن نلوكه ، ونستعيد بذلك قوانا ، كما يؤمن لنا قليلا من الكيف ، لا كالخمر ، ولكن على شكل نشوة روحية ، وراحة جسدية ، لا نحسهما الا عند تعاطيه ، والا عند اخلادنا الى سكينة الحياة الدينية . وعندما تشعر بالانهاك خذ قليلا من القات ، فيعود اليك نشاطك وحيويتك . والقات ليس من مقويات الباه أو الجنس ، بل هو على النقيض من ذلك ، اذ ان الرجال البعيدين عن نسائهم يتناولونه لضمان اخلاصهم لزوجاتهم »

ومما لا ريب فيه ان القات يعتبر من المهيجات والملطفات في آن واحد . اذ انه يشتمل على مادتي الكافيين والمورفين معا ، وهو لا يفقد الوعي ، أو يوجد حالة من الثمل كالخمر ، ولا يدفع متعاطيه الى النوم كالافيون او الحشيش . فالعقل يتفتح بتعاطيه ، ويشتد نشاطه ، كما تزداد الرغبة في العمل أيضا .

ومما لا ريب فيه أن مضغ القات مضر للصحة على المدى الطويل . وفي وسع الانسان أن يتعرف على مدمن القات من مسافة بعيدة من وجهه الشاحب وعينيه الغائرتين . ويفقد المدمنون كذلك قدرتهم على مقاومة أمراض المناطق الحارة . واذا كان الانحلال والضعف يبدوان على أهل اليمن ، فانما يعود ذلك قطعا الى هذه العادة السيئة .

وكان صاحبنا طيلة فترة الانتظار يعالج المرضى بما لديه من عقاقير فاكتسب محبة الناس والمحيطين به .

كما عرف الكثير عن أفراد حامية حريب ، اذ ان كل جندي من الجنود قد قضى فترة من الزمن في السجن . ولم يكن مثل هذا العقاب يعتبر مهينا أو محطا بالكرامة ، بل لقد كانت فترة السجن تتيح فرصة للخلاص من متاعب الوظيفة العسكرية . والسجن عند اليمنيين هو عقوبة كل جريمة ، صغيرة كانت أو كبيرة .

ولقي الرجل أثناء تجواله في حريب كثيرا من الآثار التي تعود في عهدها الى أيام حضارات سبأ وحمير . ولشد ما كانت دهشته لكثرة ما عثر عليه من مدن واسعة كانت تضم في يوم ما شعبا كبيرا ، غنيا ، ميالا الى الفنون .

وأخيرا وصل تصريح الامام بدخول صنعاء ، محددا له الطريق التي يجب أن يسلكها بكافة تفصيلاتها الدقيقة . كما أمر أن يرافقه ثلاثة من الجند حراسا عليه . ومن ثم فان حريته كانت مقيدة الى حد كبير . ولم يسمح له بالسير عن

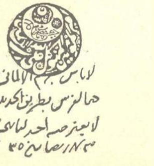
طريق مأرب وكان بوده أن يرودها لغناها بالآثار القديمة • وكان الامام يخشى أن تكون دراسة الآثار ذريعة للتجسس على بلاده• كما كان يخشى تدفق الأجانب على بلده ، وأن تمسى اليمن بلادا « مفتوحة » تتعرض للحضارة العصرية وللتطور الاقتصادى ويفد اليها الغزاة العسكريون الاجانب فى اعقاب الممولين والمهندسين الاجانب •

وعلى ضوء هذا فان مراكز الحضارة السبئية القديمة ، كمأرب وغيرها ، محظورة تماما ، لا على الاجانب فحسب ، بل على جميـــع المسلمين الاغراب عن اليمن أيضا • ولذا فقد رأى الامام أن ينقل الرجل الالمـانى أولا الى صنعاء ، حيث يمكن أن يوضع تحت اشرافه ومراقبته •

فأخذ طريقه الى صنعاء كمـــا رسم له برفقة صالح وشقيقه مبارك دليلين فى الطريق ، حتى وصل أخيرا الى الذروة ، الى صنعاء ، الى اليمن الخضراء ، الى أرض الحضارة القديمة ، التى امتد تأثيرها كما أثبتت البـحوث الاخيرة الى حوض البحر الابيض المتوسط عن طريق مصر وافريقيا، مما ترك آثاره فى أسس الحضارة الغربية •

ويصف المؤلف صنعاء بالمقدسة لانهـــا تضم ثمانية وأربعين مسجدا ، وتسعة وثلاثين كنيسا لليهود ، كما ان بها اثنى عشر حماما لنحو من خمسين ألفا من البشر •

وشهد عند مدخل المدينة ثكنة عسكريةضخمة تعود فى بنائها الى عهـــد الاتراك العثمانيين كغيرها من النبـاتات الفخمة والحصون المنتشرة



فى جميع أنحاء البلاد • وعلى الرغم من جميع النفقات الضخمة التى انفقها الاتراك ، وعلى الرغم من جميع الجهود التى بذلوها ، فانهم لم يتمكنوا من اخضاع اليمنيين من أهـــل الجبال ، الذين يصح أن يطلق عليهم اسم سويسريى العرب •

واقتيد الرجل الالمانى الى بيت القاضى عبد الله والى صنعاء ، ثم أودع السجن بعد ذلك ، وهو مكان قذر لا يقاس البتة الى ســـجن حريب • فاضرب صاحبنا عن الدخول فيه ، وسرعان ماجاء ضابط الشرطة فى المدينة ، فحل المشكلة بطريقة بسيطة ، اذ وضع مكتبه تحت تصرف الرجل • وهو مكان يتوفر فيه قدر كبير من الراحة ، ولا يبعث على الملل ، اذ كان يقضى فيه النهار مستمعا الى أشياء جديدة من القوم الذين يتدفقون على المكتب بغـير انقطاع للتقدم بشكاواهم فى خطب طويلة ، ينصت اليهـا ضابط الشرطة فى صبر عجيب ، ثم يعلن فى نهايتها قراره •

وفى الساعات المتأخرة بعد الظهيرة ، عنـدما ينتهى العمل الرسمى ، وتدنو ساعة تعاطى القات يكتظ مكتب الضابط بالاصدقاء والمعـــارف من ضباط وتجار ، ويجلس الجميع يلوكون القات معا ، ويبحثون شئون الساعة ، وأخبار اليوم • وحيل بينه وبين أى اتصـــال آخر غير ذلك ، وقد طلب أن يزور صديقا له يهوديا عرفه فى الرحلة الاولى فلم يسمح له ، وهنا يذكر المؤلف ان الشعب اليمنى يحتقر اليهود ويعتبرهم أقل منزلة منه •

وكان أصـــحاب السلطة يخشـــون ألا يكون الرجل المانيا ــ برغم جواز سفره ــ ولايستبعدون أن يكون عميلا بريطانيا جاء للتجسس • وكان هذا أمرا طبيعيا بالنســـبة اليهم ، فقـد كانوا يعيشون فى قلق دائم من جـيرانهم الاقوياء فى الجنوب ومن نواياهم السيئة وليس من شك فى انها سيئة فعلا • ولم يصدق اليمنيون قط ان هـــذا الرجل لم يرتحـل الا بدافع من حب المعرفة ، أو الرغبة فى المغـــامرة ، وليس من المعقول فى نظرهم أن يتحمل كل هـذه المشاق دون سبب خفى آخر •

وأباحوا له ــ برغـم ذلك ــ التجـول تحت

اليمن من الباب الخلفي

الحراسة ، فالتقى برجلين ألمانيين يشتغلان بالتجارة ، وقد لقى فى ضيافتهما شيئا من الراحة • وأطلق له شيء من الحرية بعدما تثبت القوم من جنسيته ومن حسن نواياه • فاشترك معهم فى أعيادهم ، ووصف فى كتابه موسيقاهم، التى تختلف بعض الشيء عن الموسيقى العربية المألوفة ، ففيها تنوع فى اللحن ، وانتقال فى السلم الموسيقى • وقد قام بتسجيل هذه الموسيقى ونقلها معه عند عودته الى الغرب • ويرى الكاتب فيها شبها بالموسيقى البربرية عند قبائل افريقيا الشمالية ، مما يدل على وجود علاقة قديمة بين أهل الجنوب العربى وبين البربر •

وليست الموسيقى وحدها هى الدليل على وجود علاقة بين الشعبين • فمن الحقائق البارزة أن هناك أبنية مرتفعة تتشابه فى كلا البلدين •

وفى هذا الجزء من الكتاب تعود بالمؤلف الذكريات الى الايام الاولى التى قضاها فى صنعاء قبل ذلك بنحو عام فى عهد الامام يحيى • فيحدثنا كثيرا عن هذا الرجل المتشكك المستبد ، وعلى اعتقاد الناس فى قدرته السحرية على الشفاء بالاحجبة والتعاويذ ، وعن تحكمه فى مصائر الناس ، فيرفع هذا ويخفض ذاك حسب هواه•

وكثيرا ما كان الزائرون ينشدون القصائد فى حضرته ، والشعر فى حكم مؤلف الكتاب يؤدى عند العرب الدور الذى تؤديه الموسيقى فى أوربا، فهو حتما من الفنون الشعبية • وهو ينظم فى كل مناسبة• ويتحدث الكاتب هنا عن أثر الشعر فى حياة العرب منذ الجاهلية الاولى ، وعن قدرة اللغة العربية على التعبير ، ولعل العرب أن يكونوا أكثر الشعوب تفننا فى استخدام اللغة • وكثيرا ما كان الشعر الجيد أقوى أثرا فى الامام من عشرات الحجج المنطقية •

ويعنى لقب الامام النسبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وللامامة شروط يسردها فى الكتاب • وقد أقام الامام يحيى طائفة خاصة ضمن الشيعة يطلق عليها اسم الزيود ، وهم يرون فى الامام يحيى أو أى من ذريته الرئيس الروحى والممثل الشرعى للرسول • غير ان اتباع الامام لم ينتشروا الا فى جبال اليمن ، أما المنطقة الساحلية فقد ظلت على سنيتها •

وقد بدأ الامام يحيى حكمه بثورة عامة على السيادة التركية ، وفى عام ١٩١١ عقد مع تركيا معاهدة كفلت له قدرا كبيرا من الاستقلال فى الحكم • ولما نشبت الحرب العالمية الاولى حاولت بريطانيا أن تقنعه بأن ينكث العهد مع الاتراك ، بيد انه لم يستمع الى هذا النصح الخبيث من الانجليز • واكتفت بريطانيا بتعزيز حاميتها فى اليمن ، كما اقتطعت من جنوب شبه الجزيرة أجزاء كانت من قبل جزءا من اليمن •



وانسلخت اليمن نهائيا عن حكم الاتراك فى نهاية الحرب العالمية الاولى ، وحاولت بريطانيا أن تحتل الحديدة ولكنها باءت بالفشل • وفى عام ١٩٢٦ عقد الامام معاهدة صداقة مع ايطاليا ، ضمنت فيها ايطاليا استقلال البلاد نظير بعض الامتيازات الاقتصادية والتجارية ، وتعهدت ايطاليا بتقديم الاسلحة والذخائر بأثمان منخفضة • بيد ان ايطاليا كانت متفقة فى هذا مع بريطانيا مما يثبت ان الامام يحيى كان متعاونا مع الاستعمار بشكليه الايطالى والبريطانى •

ولم يكن حكم الامام مما يمهد الى تمدين البلاد، نظرا لرجعيته واختلال الامر فى البلد الى درجة منقطعة النظير • ولم يكن هم الامام الا اكتناز المال ، وجمع الثروة ، والدفاع عن النفس• وكان

يحارب كل يمنى يثرى حتى لا يصبح خطرا عليه فى يوم من الايام ·

وكثيرا ما كان الامام يلجأ الى نظام الرهائن · ومؤداه ان كل كبير فى اليمن ، أو شيخ من شيوخ القبائل ، عليه أن يسلم أحد أولاده أو اخوته الى الامام كرهينة على ولائه وحسن سلوكه · فان تمرد اعتقل الملك ماعنده من رهينة وقد تكون حياته ثمنا للعمل الذى قام به أبوه أو أخوه · وبهذه الطريقة تمكن الامام من اخضاع رؤساء القبائل ·

وكان للامام أيضا حريمه · غير ان حريم الملك يحيى لم يكن عاطلات عن العمل ، بل كن يعملن فى خدمة الصالح العام ، خلافا لما عرف عن الحريم عند الملوك الآخرين ·

وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى تقاسمت الدول الغربية المنتصرة تراث الامبراطوريه العثمانيه ، وبقى حاكمان مستقلان كل الاستقلال، وهما ابن سعود الحاكم فى قلب الجزيرة العربية ، والامام يحيى فى جنوبها · وقد حاول كل من الحاكمين توسيع مملكته التى لم تكن حدودها واضحة كل الوضوح · ونجح ابن سعود نجاحا أكبر فى تحقيق غرضه هذا · فمضى الى الجنوب ، واحتل سلطنة عسير المجاورة لليمن ، والتى كان الامام يحيى يطالب بها كجزء من مملكته · واسفرت هذه الحركات عن مناوشات مستمرة على الحدود · وأدت هذه المناوشات الى حرب نشبت بين الدولتين فى عام ١٩٣٤ ، وانتصر الوهابيون ، واحتلوا ميناء الحديدة ومعظم المنطقة الساحلية · وانتهى الامر بالصلح بين الطرفين · غير ان المنافسة بقيت دفينة فى النفوس من ذلك الحين ·

وفى عام ١٩٤٦ انضمت اليمن الى جامعة الدول العربية · وتوفى الملكان ، وتولى الملك فى اليمن الامام أحمد · وعادت الى السعودية شهوة السيطرة على اليمن ·

وأخذت مطامع الدول الاستعمارية فى اليمن فى ازدياد مطرد وبخاصة لانها تحتمل وجود آبار الزيت فى جبالها ·



وبعد هذا الاستطراد عن حكم الامام يحيى يعود المؤلف الى وصف رحلته ، وقد بلغ صنعاء التى يسميها حصن الاسلام فى الشرق ، ويصف معالمها وطرائق العيش فيها ، ويشيد بفن العمارة فيها ، وبقصورها الشماء · ومن ثم فهو يرى ان فن العمارة العربية قد نشأ فى الجنوب العربى ويعتقد ان معماريى هذا الجنوب هم الذين بنوا قصر الحمراء فى الاندلس ·

وقد كانت صنعاء فيما يروى الكاتب قلعة حصينة للمسيحية فى عهد القائد ابرهة الحبشى، على الرغم من مقاومة الطائفة اليهودية العنيفة ، التى كانت تتمتع بالقوة والجبروت فى ذلك الوقت ·

وبعد انتهاء عهد ابرهة ظهر النبى محمد عليه السلام فأحل الاسلام محل النصرانية لا فى البلاد العربية فحسب ، بل فى موطنها الأصلى فى فلسطين أيضا · وقد ظلت صنعاء عدة قرون الحصن الشرقى المنيع للاسلام · ويشير الى هذه الحقيقة العدد الذى لا يحصى من المساجد بمناراتها المرتفعة الى السماء · وتمثل هذه المساجد سيطرة الدين على الحياة فى كافة نواحيها · وتستخدم مساجد صنعاء العديدة مؤسسات لتعليم الصغار · وهو تعليم كله يدور حول القرآن وكتب الشريعة · كما ان الدين هو أساس الحكم والقانون ·

وبقيت غالبية السكان تعانى من الفقر والجهل والمرض ، ولم يفكروا فى الخلاص منها بصورة جدية الا بعد ثورة السلال الاخيرة ·

وبالمدينة حى كبير لليهود ، يقطنه نحو ستة

اليمن من الباب الخلفى

آلاف منهم من مجموع خمسين ألف يهودى فى جميع أنحاء اليمن • واليهودى انسان محقر فى نظر المسلم ، لا يجوز له أن يركب الجمل أو البغل ؛ والدابة الوحيدة التى يتنقل عليها هى الحمار • ولا يسمح له بحمل السلاح ؛ أو الانخراط فى سلك الجندية ؛ كما هى الحال فى بعض بلدان أوربا ذاتها • ولا يمارسون الا أحقر المهن ؛ ولا يسمح لهم بالجلوس فى حضرة النبلاء من العرب • ويجب ألا يرتفع البناء فى حى اليهود أكثر من طبقتين •

ولم يسمح الامام قط ليهود بلاده بمغادرة اليمن ؛ أو باقامة أى اتصال بينهم وبين يهود فلسطين أو الحركة الصهيونية • غير أن الكثيرين منهم كانوا يفرون عبر الجبال ؛ فيصادر الامام أملاكهم • وبرغم هذا فان عددا منهم يؤثر البقاء فى اليمن • حتى قامت دولة اسرائيل المزعومة بعد الحرب العالمية الثانية ، أخذ أكثرهم فى طلب الهجرة وسمح لهم بذلك على أن يتخلوا عن ثرواتهم •

وطال مقام صاحبنا فى صنعاء وأخذ يتشكك فى مصيره ، ولم يجد من يشكو اليه أمره ، فالامام لم يسمح بتبادل التمثيل السياسى مع الدول الأجنبية • وأخيرا أفرج عن الرجل الألمانى ، على أن يغادر صنعاء فورا الى الحديدة فى طريق العودة الى بلاده • وبمقدار ماسر لهذا النبأ ، اعترته



مسحة من الكآبة لأنه لم يستطع أن يتجول فى اليمن وأن يخرج منها بحصيلة علمية كان ينشدها • واتجه تحت الحراسة المشددة نحو الحديدة • وكثيرا ماكان يضطر الى المبيت فى زنزانات معدة لهذا الغرض على طول الطريق ، لا يمكن أن ينعم النائم فيها بغمضة عين لكثرة مابها من الحشرات والهوام التى تمتص دماء البشر •

ولعل أشد ما أذهله فى هذه المنطقة حقول البن اليمنى المشهور • ويعتقد المؤلف أن أوربا وبلاد العالم الأخرى لم تعرف هذا الشراب المسمى بالقهوة الا عن طريق ايمن •

واقتضت الرحلة أن يهبط صاحبنا من المناطق السحرية فى جبال اليمن الى السهول المنخفضة ، وكأنه كما يقول قد انتقل من أعالى سويسرا الى أطراف الصحراء الكبرى ، ولبث المسافر فى رحلة شاقة حتى بلغ الحديدة فى يوم عيد من أعيادها •

واستطاع أخيرا أن يستقل الباخرة فى الحديدة ويغادر البلاد • وأخذت السفينة تمخر عباب الماء ، وقد ألقى بنظرة عميقة الى الوراء فلمح « خيطا أصفر يمثل الساحل ، ظهرت فيه بعض البيوت البيضاء ، وأخذ هذا الخيط يسبح فى الهواء الخفاق على الأفق البعيد ••• كان كل شىء خيالا ، أما الحقيقة فقد ظلت قائمة فى مجموعات الصور والأفلام والاسطوانات التى أحملها الآن معى متجها الى أوربا » •

وبهذه العبارة يختتم هانز هولفريتز كتابه « اليمن من الباب الخلفى » الذى قرأته فى ترجمة عربية تكاد أن تفوق الأصل فى براعة الاسلوب ودقة التعبير •

وانى وان كنت قد قدمت للقارىء عرضا مسهبا لهذا الكتاب قد يقتنع به بعض القراء الا أنى أنصح كل مهتم بشئون اليمن والجنوب العربى أن يرجع الى الكتاب نفسه يطالعه فى عمق وامعان •

محمود محمود

فلسطينيات

في مثل هذا الشهر منذ تسعة عشر عاما تجسمت خيوط المأساة ، وتشابكت عقد الأطماع والرغبات ، أطماع رؤوس الاستعمار ورغبات أذنابهم ٠٠ فكان المعبر عنها كلها ـ الغدر مع الخيانات ٠٠ ومن هنا فقط ترسبت أدران الصهيونية ٠٠ وكونت ما سمته اسرائيل ٠

وتقدم المجلة اليك ـ أيها القارىء العزيز ـ بهذه المناسبة الحزينة ٠٠ هذه المقالات ٠٠ تذكرة وعبرة ٠



إسرائيل عبر التاريخ

تأليف : الدكتور فؤاد حسنين على
عرض وتحليل : الدكتور حسين فوزى النجار
الناشر : المؤلف ٢٥٢ صفحة ١٧×٢٤ سم

لم يكن هناك ما هو أشد صخبا فى التاريخ من اليهود أو بنى اسرائيل على تفاهة شأنهم وضآلة تأثيرهم فى أحداثه أو فى سير الحضارة الانسانية ، وما من طائفة عانت من المجتمع الانسانى وعانى منها المجتمع الانسانى كبنى اسرائيل ، وما من جماعة ذكر التاريخ غاضبا أو راضيا ، جادا أو ساخرا كما ذكر بنى اسرائيل ، ولعل غضب التاريخ منهم أنهم كانوا على الدوام نشازا فى سطوره ، ولعل الجدية فى دراسته لهم مايستوجبه النشوز من فحص ودراسة ، وكانت السخرية منهم أكثر من الرضى عنهم حتى عدت السخرية كتاب التاريخ الى الأدب والفن ، بل والنوادر التى تروى تفكها بالشذوذ ٠ فاذا كان ثمة رضا فى الكتابة عنهم ، فمن قبيل الرثاء لطائفة جلب عليها

شذوذها من النكبات مايرده المؤرخون الى سخائم نفوسها ، وهى سخائم طبعت المجتمع الاسرائيلى بطابعه من الغرابة والشذوذ • فكانت آثامهم عنفا وقسوة ومعصيه حتى غاصت معهـــا فضائلهم ، فكانت طيبتهم استخذاء وتنمرا ، وكان تدينهم والتصاقهم بتعـــاليم التوراة ، وتقـــاليد المجتمع الاسرائيلى تعصـــبا واستعلاء ، وامتهـــانا لكرامة التدين وفضائل الأديان الســـماوية ، فوسمتهم التوراة بأفظع مما وسمهم التاريخ ، أو تندر بهم الأدب ، ففى « الملوك الأول » : « وعمل يهوذا الشر فى عينى الرب وأغاروه أكثر من جميع ماعمل أباؤهم بخطاياهم التى أخطئوا بها • وبنوا هم أيضا لأنفسهم مرتفعات وأنصابا وسوارى على كل تل مرتفع وتحت كل شجرة خضراء ، وكان أيضا مابونون فى الارض • فعملوا حسب كل أرجـــاس الأمم الذين طردهم الـــرب » وفيه : « ويضرب الرب اسرائيـــل كاهتزاز القصب فى الماء ويستأصل اسرائيل عن هذه الارض الصالحة التى أعطاها لآبائهم ويبددهم الى عبر النهر لأنهم عملوا سواريهم وأغاظوا الرب » • وفى الخروج ، أنهم اتخذوا من سبائك الذهب عجلا عبدوه وهم فى التيه حين غاب عنهم موسى فى صعوده الى الجبل لمناجاة الله • ويخاطبهم القرآن فيقول : « أفكلما جاءكم رســـول بما لا تهـــوى أنفسكم اســـتكبرتم ففريقا كذبتم وفريقـــا تقتلون » • ويقول : « ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » •

وفى هذا الشذوذ مايحمل على جدية البحث ، فليس هناك ما هو أكثر استهواء للبـــاحث من الغـــوص فى أسرار النفس الانســـانية ليجلى مكنونها ، ما اتسم منها بالغرابة والتعقيد أكثر مما اتسم بالاستواء والبســـاطة ، وليس هناك ماهو أشد جاذبية للدارس من دراسة المجتمعات البشرية من جانبها الانسانى الفريد النادر الذى لا شبيه له •

ولعـــل هذا حمل صـــديقنا « الدكتور فؤاد حسنين على » على التعـــرض لدراســـة المجتمع الاسرائيلى اذ يقول :

« لا نجد شعبا من شعوب العـــالم معلوما »
« ومجهولا كالشعب اليهـــودى ، فالانسان لن »
« ينســـاه ولن يحبه ، وذلك بســـبب الكتب »
« السماوية أولا ، والكـــثرة المطلقـــة من الكتب »
« التى نشرت حـــول هذا الشـــعب وتاريخه »
« ثانيا ، وقد حاول كثيرون من العلماء التوفيق »
« بين رأى أولئك وهؤلاء ، الا أن هذه الأمنية »
« لم تتحقق وظل الأمر كما هو عليه اليوم • »

« واذا أردنا أن ننصف التاريخ حقا ونتبين »
« الأســـباب التى دفعت الوحى فى مختلف »
« العصور ، ومؤرخى هذا الشعب الى الانتهاء »
« الى هذه النتائج المتضاربة تحتم علينا مراعاة »
« الأصول المتبعة التى تمليهـــا علينا الأمانة »
« العلمية ، أعنى أن يتوخى المؤرخ الانصاف »
« فيعرض كما عرض الوحى تاريخ هذا الشعب »
« بحسناته وســـيئاته فعرض تاريخ المجتمع »
« الاسرائيلى من هذه الزاوية سينتهى بالباحث »
« ولاشك الى ادراك المكانة التاريخية الحقيقية »
« للاسرائيليين • »

وهى دراسة واجبة أهملها غيره من الباحثين حين عكفوا على دراسة القضية الفلسطينية دراسة اتسم بعضها بالجد والوقار العلميين ، ولج بعضها الآخر فيما يعرفه الناس فلم يضيفوا الى المعرفة التاريخية شيئا جديدا •

وليس أوجب على العربى من دراسة هذا العدو الجديد دراسة علمية قائمة على الحقائق المجردة حتى يلم بخصائصه ونوازعه ليخوض المعركة معه على هدى وبصيرة ، وليس أوجب من أن يسهب الباحثون العـــرب فى هذه الدراسة حتى نعرف عدونا على حقيقته فلا يضل لنا سعى فى مقارعته أو نزاله فالمعركة شاقة طويلة والجهد بعيد •

فما من أمة نكبت بمن أحسنت اليه كما نكب العرب باسرائيل ، فلم يلق اليهود ظلا من العدالة والتسامح الا بين العرب » فتحت راية الاسلام – كما يقول المؤلف – تنفس اليهود نسيم الحرية بعد أن ذاقوا مرارة الاستعباد قرونا طويلة ، من الوثنية حينا والمسيحية أحيانا ، وظلوا ينعمون بعدالة الاسلام حتى رماهم الله بالصليبيين ففى عام ١٠٩٩ م انقض الصـــليبى (جونفريد فون بوييون) على المدينة المقدسة وجمع يوم ٢٥ يوليه ١٠٩٩ م جمع اليهود قرابين وربانيين فى معبد

وأشعل فيهم النار ، وبذلك قضى نهائيا على يهود القدس » •

ولم يذكر اليهود للعرب تلك المنن ، فكان شر مالقيه العرب فى تاريخهم الطويل على يد اليهود خسة ونذالة ونكرا ، فكانت مذابح حيفا ويافا « ومذبحة دير ياسين حيث أبادوا جميع سكانها أطفالا وشيوخا نساء ورجالا ، واكتفى بن جوريون بارسال اعتذار الى الملك عبد الله » •

وكان الملك عبد الله فى سذاجة شيخ القبيلة البدوى الماكر يأمل أن ينال شيئا من فتات المائدة الصهيونية فى فلسطين ، ولعله كان يطمع فى أكثر من الفتات غير حاسب للمكر الصهيونى حسابا ، ففى عنفوان المأساة « وفى أواخر مارس ١٩٤٨ – كما يروى المؤلف – أعلن بن جوريون انهاء الانتداب ، ودعا مساء يوم الجمعة ١٤ مايو أى السبت ١٥ منه ، أعضاء مجلس الشورى الذين عقدوا اجتماعا فى المتحف بعد أن أزيلت من على حيطانه اللوحات الفنية ووضعت فى صدره صورة هريزل وفى هذا الاجتماع قامت جولدا مايرسون وأطلعت المجلس على نتائج زيارتها للملك عبد الله الذى كثيرا ما التقت به سرا من قبل وفى فلسطين » •

ويمضى المؤلف فيقول : « أما هذه المرأة فقد اضطرت الى زيارته فى عمان متنكرة فى زى عربية ، وقالت ان الملك كان طيبا جدا رفيقا الا أنه قال فى حالة عصبية : ما وجه السرعة أيها اليهود فى اعلان قيام دولتكم ؟ فأجابته جولدا : لقد انتظرنا ألفى سنة هل ترون أننا نتعجل ؟ ان عبد الله ضد فكرة التقسيم لأنه يريد الاستيلاء على كل فلسطين لنفسه بقوة الفيلق العربى ، وانتهى الاجتماع بموافقة اجماعية على اعلان استقلال البلاد » •

ولا يذكر المؤلف طبيعة هذه الاجتماعات التى كانت تدور فى الخفاء بين الملك عبد الله وجولدا مايرسون وهى التى أصبحت بعد ذلك وزيرة خارجية اسرائيل ، ولا يتحدث عما كان يبغيه الملك عبد الله اذا لا نعتقد أن مفاوضات من أى نوع قامت – كما جاء على لسان جولدا مايرسون – حول رضاء اليهود بابتلاع الملك عبد الله لكل فلسطين بقوة الفيلق العربى الا أن يكون الملك عبد الله من السذاجة بحيث يعتقد أنه يخدع اليهود عن مراميه ، ولا نعتقد الا أن الملك كان يطمع فى التعاون مع اليهود على اقتسام فلسطين بينه وبينهم ، أو أن يرضى اليهود بقيام دولتهم فى ظل السيادة الهاشمية وهو ماتضمنه مشروع سوريه الكبرى الذى أعلنته غداة انتهاء الانتداب البريطانى على شرق الاردن ، وما كان من تأييده لتقرير لجنة بيل عام ١٩٣٧ ، ويقضى بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود أملا فى أن يضم القسم العربى منها الى أمارته ، وهو ما كان منه حين أعلن ضم غرب الاردن وقيام المملكة الاردنية الهاشمية ، ولعل انسحابه من اللد والرملة وكشف الجناح الأيمن للجيش المصرى بعض ما اتفق عليه مع جولدا مايرسون فى اجتماعهما الذى أشارت اليه فى عمان •

ولئن أغضى المؤلف عن تفصيل هذا الواقع المخزى ، وقد بلغت المأساة قمتها ، تحرجا من الادانة بغير دليل من الوثائق التى تعوزه فألقى الحقيقة كما يعرفها تاركا للقارىء تصورها ، أو لأنه لم يرد أن يدفع بالخيانة أميرا عربيا فى شينه ما يشين العرب جميعا ، فقد أبرز موقف الملك الراحل عبد العزيز آل سعود مع الرئيس الامريكى الراحل روزفلت فى لقائهما على ظهر المدمرة الامريكية (كوينس) فى البحيرات المرة خلال فبراير ١٩٤٥ ، وكان موقفا كريما من الملك لا تنقصه صراحة العاهل ولا دهاء الامير عبر به عن الارادة العربية حيال فلسطين أبلغ تعبير وأصدقه •

ويعبر بنا المؤلف قبل دراسته للمجتمع الاسرائيلى عبورا سريعا فوق آكام من السنين من تاريخ الشعب الاسرائيلى منذ البداية ، أو البدء على حد تعبير التوراة حتى اغتصابهم لفلسطين عام ١٩٤٨ ، فتزدحم الاحداث والوقائع حتى لتغيم وتختلط فى ذهن القارىء وان خرج منها بجديد فى المعرفة لم يطرقه بعد كتاب فى العربية ولا يعنى به سوى متخصص فى الحفريات أو تاريخ الشعوب السامية القديم والمؤلف كما نعرف عالم من علماء اللغات السامية متفقة فى دراسة العبرية فنراه يرد الكلمات الى أصولها العبرية أو مسمياتها فى التوراة ، فأورشليم جاءت فى التوراة على أيام ابراهيم باسم «شلم» ، و «حركة

أصدقاء صهيون » هى بالعبرية «حببوه صيون» ، و «قرن قياميت لبسرائيل» تعنى «الرصيد القومى اليهودى » و « فوعالى صيون » ، هيئة العمال الصهيونيين ، و « صميديم » أى الاساور ، و « مكسيم » الخلاخيل ٠٠ الخ ٠

وأورشليم وهى مدينة القدس الشريف مازالت - كما يقول : « منذ أكثر من خمسة آلاف عام قلب فلسطين النابض ، وان فتحت سبعا وثلاثين مرة وأحيانا سويت بالارض الا انها ظهرت للوجود ثانية فهى المدينة الخالدة حقا » ٠

« وأول مرة نلتقى فيها بالمدينة فى نصوص مكتوبة كان فى رسائل تل العمارنة حيث نقرأ كيف أن والى مصر على أورشليم والمسمى (ايديهيا) يرجو فرعون أن يمده بمدد لرد قبائل الجنيرى» ويمضى المؤلف فى سرد مغتصب لتاريخ اليهود فى أورشليم ، منذ « استولى عليها داود ، وعلى برجها الذى اطلق عليه اسمه فعرف فيما بعد باسم برج داود ، أما المدينة فجعلها عاصمة لمملكته وذلك لموقفها العسكرى العظيم ٠٠ ولم تكن أورشليم مدينة الملك فحسب بل مدينة الله أيضا وبخاصة بعد قيام المعبد بها ، ذلك المعبد الذى شيده سليمان والذى قام على انقاض المذبح الذى بناه داود على التل الشرقى ، لذلك أطلق لفظ (صهيون) على هذا التل « على صهيون يسكن الله » ومن ثم عمم اللفظ أعنى صهيون على كل المدينة » ٠

وتنحدر بها الايام من عصر سليمان الذهبى لتصبح « عاصمة دويلة صغيرة فقيرة الا وهى دويلة يهوذا » ويستولى عليها فرعون مصر شيشنق فيخرب معبدها والقصر ، ويشير سفر أخبار الايام الثانى الى أن العرب والفلسطينيين خربوها للمرة الثانية « وأهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين فصعدوا الى يهوذا وافتتحوها ، وسلبوا كل الاموال الموجودة فى بيت الملك مع بنيه ونسائه أيضا ولم يبق له ابن الا يهواحاز أصغر بنيه » ٠

ولم يشر المؤلف الى ما كانت تعنيه كلمة عربى وعرب حينذاك حتى لا يختلط معناها بما نعرفه من مدلولها الشامل بعد ذلك ، فلم يكن مسمى (عرب) يطلق الا على الاعراب أو سكان البادية،

ولو كانت تطلق بالمعنى الشامل الذى تطلق به الآن لعرفت هذه الشعوب كلها من سكان فلسطين فى الزمن القديم ، كما تعرف اليوم باسم العرب ولأصبحت كلمة عرب دليلا على المعنى القومى الذى يرادفها الآن ٠

فكلمة عرب وعربى أحدث نشأة ممن تطلق عليهم اليوم أو من كانت تطلق عليهم غداة عم هذا المسمى قبل بضعة قرون من ظهور الاسلام٠ ويختلف المؤرخون حول ظهورها فى التاريخ ويرى نيلدكه T. Noeldeke أن عربية تعنى الصحراء وتشمل فى نظره شبه الجزيرة العربية وامتدادها فى الشام وشبه جزيرة سيناء ، ولا يختلف فى تفسيره هذا عما ذهب اليه « اكسنوفون – XenoPhene تلميذ سقراط من قبل حين أطلق كلمة عرب على سكان صحراء الجزيرة العربية ٠

وأول مايذكر اسم العرب فى نقش للملك الأسورى شلمناصر الثالث حين قاد حملة على ملك دمشق الآرامى وحليفيه آخاب ملك اسرائيل وجندب أحد مشايخ العرب وخاض ضدهم معركة « قرقر » شمال حماه عام ٨٥٤ ق٠م فانه يدون



فى هذا النقش كيف قهر أعداءه ومنهم « جندب العربى » الذى كان يقود ألف جمل ٠

ويذكر سرجون الثانى (٧٢٤ – ٧٠٥ ق٠م) قاهر قرقميش والسامرة كيف أنه أخضع فى العام السابق على حكمه أقواما من بينهم قبيلتا « تمود وأباديد » وكيف نكل بهم ونفى بقاياهم الى السامرة حاقرة مملكة اسرائيل الشمالية بعد أن شرد الاسرائيليين ونفاهم الى مناطق أخرى ٠

ويتصل بعد ذلك ذكر العرب والبدء فى المدونات الاشورية ، ويذكرهم « هيرودوت » حين يؤرخ لفتوحات دارا عاهل الفرس فيقول : « واعترف بسيادته جميع الشعوب التى أخضعها قورش ثم قمبيز من قبل فى آسيا الا العرب فانهم لم ينطووا قط تحت سلطان فارس وكانوا حلفاء لها » ٠

وترد كلمة عرب مرارا فى سفر «أشعياء» كما فى آية «لا يخيم هناك اعرابى» وآية « فى الوعر من بلاد العرب تبيتين ياقوافل الدادانيين » وان كنا لا نستطيع أن نتبين ما تعنى ، أتعنى قومية بعينها أو شعبا أم تعنى البدواة على الارجح ، ويتحدد المعنى أكثر من ذى قبل فى الآيات الواردة فى « ارميا » ففى عبارة «وكل ملوك العرب» نرى الدلالة واضحة على شعب يعرف بالعرب ، ولكن الكلمة تبدو أكثر غموضا مما ذكرت فى «أشعياء» فى آية « فى الطرقات جلست لهم كاعرابى فى البرية » فقد تعنى البداوة أو تعنى النسبة الى قوم معينين هم العرب ٠

وعذر المؤلف انه أخذ يقفز فوق الاحداث والوقائع من تاريخ اسرائيل تمهيدا لدراسته عن المجتمع الاسرائيلى فلم يعن بالتفاصيل وان ذكر من خفاياها مالا يحتمل تلك الاشارات العابرة وكان أولى به أن يسهب ويطيل وهو المتخصص فى دراسة هذا الموضوع ٠ ولكنه يمضى بنا عبر الزمن حتى عام ١٩١٧ حين « سقطت بيت المقدس فى يد الانجليز فى اليوم التاسع من شهر ديسمبر ووقف الجنرال اللنبى أمام باب يافا بالقدس وقال جملته المشهورة : « ان الارض الموعودة ليست للعرب أو الفرنسيين أو اليهود وانما للانجليز » ويعد هذا وعدا من اللنبى لبلاده بفلسطين ، ويرى انه الوعد الرابع « اذ سبق – كما يقول – أن وعدت بها انجلترا العرب فى اكتوبر عام ١٩١٥ ، والفرنسيين فى مايو عام ١٩١٦ واليهود فى نوفمبر عام ١٩١٧ ووعدت انجلترا نفسها فى ديسمبر من العام نفسه ، لذلك تهكم الساسة الغربيون على العهود الاربعة التى قطعت ، والوعود التى بذلت ، وأطلقوا على فلسطين : « الارض التى تعدد الوعد بها » ٠

ولا نعلم من هذه الوعود غير تصريح بلفور فى نوفمبر عام ١٩١٧ وهو الذى غدا يعرف « بوعد بلفور » ، ولا ندرى كيف يعد الانجليز العرب بفلسطين وهى بلادهم ، وكل ماجرى من مراسلات بين الحسين ومكماهون وما تلاها من مفاوضات أو مهد لها من اتصالات كان يدور حول استقلال البلاد العربية الخاضعة للسلطان العثمانى وتمليكه عليها ، ولا نعلم أن الانجليز وعدوا بها الفرنسيين ، وكان أكثر ما يخشاه الانجليز أن يقترب الفرنسيون أو غيرهم من قناة السويس فأصروا على أن تكون فلسطين فى اتفاقية «سيكس – بيكو » عام ١٩١٦ تحت ادارة دولية وأشير اليها باللون البنى فى خريطة الاتفاق تمييزا لها عن مناطق النفوذ المباشر وغير المباشر للانجليز والفرنسيين فى أملاك الدولة العثمانية ٠

ويرد المؤلف « مشكلة فلسطين » وهى مشكلة قديمة وأقدم من المؤتمرات الصهيونية – كما يقول – الى قضية «دريفوس» وكيف دفعت بهرزل الى أحضان الصهيونية ، مما هو معروف ، وحملته على كتابة « رسالته المشهورة المعروفة باسم – دولة اليهود » ٠ يدعو فيها الى ايجاد حل لانقاذ يهود أوربا من العذاب والاضطهاد » ٠ فأورث رسالته حمى النشاط الصهيونى ، وتبلورت فكرة قيام الدولة اليهودية حتى غدت « عقيدة راسخة عند الصهيونيين فاستغلوها استغلالا قويا ، ودعوا لها بمختلف الوسائل فتلقفتها الجاليات اليهودية فى مختلف المدن الاوربية وبخاصة هذه الجالية النازلة فى مدينة بلونسك الصناعية الواقعة على النهر الذى تنسب اليه » حيث نشأ « دافيد أقيجدور جرين » الذى أصبح يدعى بعد أربعة وعشرين عاما من مولده «دافيد بن جوريون» ٠ وفى مدينة بنسك من الجانب الآخر لوارسو «على بعد ثلثمائة كم شرقى بلونسك ، التحق طفل

يهودى آخر يدعى « حاييم فيزمان » وهو ابن اثنى عشر عاما بمدرستها التجهيزية » وكان ذلك عام ١٨٨٦ ، العام الذى ولد فيه دافيد بن جوريون فى مدينة بلونسك ، والى هذين الرجلين اللذين جمع القدر بينهما « فى وطن واحد وفى عصر واحد وحققا رسالة واحدة الا وهى احتلال فلسطين » .

وفى فلسطين يبدأ كفاح «بن جوريون» بعد أن فشل فى دراسته بوارسو وهجرها فى سفينة أقلعت به مع صديقه « شلوموزيماخ » الى يافا وتوجها الى مستعمرة «فتاح تنوه » أى مفتاح الامل أول مستعمرة أسسها يهود القدس فى فلسطين عام ١٨٧٨ .

وأعلنت الحرب العالمية الاولى وبدأت الحركة الصهيونية اصرارها العنيف لاحتلال فلسطين وانشاء دولة يهودية مما يعرفه القراء ، ويقصه المؤلف فى عجلة تزدحم فيها الوقائع والاسماء حتى اعلان قيام دولة اسرائيل مساء الجمعة ١٤ مايو ١٩٤٨ . وما كان من الحرب بين العرب واعلان الهدنة الاولى فالثانية واغتيال « فولك برنادوت» ، فكان قيام هذه الدولة التى «أوضحت لنا مدلول لفظ صهيونية ، انها الوحشية والقتل والسلب والنهب » .

وبعد هذا العرض التاريخى يبدأ المؤلف فى دراسة المجتمع الاسرائيلى القديم ، كيف بدأ وكيف استسلم للعزلة حتى غدت « شعارا لهذا الشعب وعلامة مميزة له بين الشعوب . ومنهذه العزلة ظهرت فكرة الاختيار وان بنى اسرائيل هم شعب الله المختار» . وأوحت اليه فكرة الاختيار « القدرة والكفاءة — وبتعبير آخر الحيوية الجبارة للكفاح حبا فى البقاء » . وكانت هذه «العناصر الثلاثة «العزلة» و « الاختيار » و « التجمع » الى جانب العقيدة الدينية هى مقومات الامة الاسرائيلية التى تلازمها حتى اليوم » .

وجاء موسى الزعيم الذى قاد شعبه للاستيلاء « على وطن آخر أعنى أرض كنعان التى يستوطنها العرب وبعض العبريين » . وكان الكنعانيون يسكنون أرض فلسطين مما حمل المؤلف على وصفها ووصف سكانها « وثقافتهم فى عصر ما قبل التاريخ » . وقبل نزوح الاسرائيليين وما كان من نزوح هؤلاء الاسرائيليين اليها . ويقفز من هذا العرض السريع الى وصف الاسرائيلى فى طعامه وكسائه وزينته وفى أسرته وقرينه وعلاقات المجتمع الاسرائيلى وعاداته وحرفه ومعارفه ودستوره وشريعته وعباداته وأسلحته وحصونه.

ويختم بحثه بفصل عن « العزل » وآخر عن « النبوة » ، فأما العزل فيقول ان « ثلاثة عصور تعاقب فيها على المجتمع الاسرائيلى ثلاثة ملوك ففرضوا على هذه العصور لا شخصياتهم فحسب بل تاريخها أيضا حتى أصبحت تعرف فى التاريخ الاسرائيلى بأسماء هؤلاء الملوك الثلاثة شاؤل وداود وسليمان ، فاثروا فى المجتمع وتأثروا به حتى أكسبهم أهميتهم التاريخية ، فعصر الملك الاول عصر البطل شاؤل ، وعصر داود هو عصر المزامير ، ثم عصر سليمان الحكيم » . وفشل هؤلاء الملوك فى تثبيت مبدأ الوراثة ، وفشلت سياستهم فى الابقاء على وحدة اسرائيل فانقسمت الى دولتين : اسرائيل فى الشمال « وتسمى أيضا دولة افرايم أو سماريا ، ويهوذا فى الجنوب » وتنتهى دولة سماريا وتتلاشى دون أن تترك أثرا أما دولة يهوذا فتبقى ويبقى معها اليهود .. دويلة فقيرة معدمة فقدت كل عناصر التقدم والرقى .. يتقاسمها الامراء والكهنة والانبياء » مما عجل بزوالها .

وأما النبوة فهى « عنصر مزدوج دينى وأرضى ... ويتميز أنبياء المجتمع الاسرائيلى بظاهرة مشتركة ألا وهى المثالية ، أعنى مثالية الصلات بين الحياتين الدنيوية والاخروية » .

والكتاب دراسة علمية جادة يغلب عليها الطابع المدرسى كما يغلب عليها التخصص الضيق ، يجمع بين الطلاوة والجفاف ، يضنى به القارىء العادى ، ويحفى به البحاثة المتخصص .

د . حسين فوزى النجار

الهاشميون وقضية فلسطين

الناشر : جريدة المحرر والمكتبة العصرية ببيروت

تأليف : أنيس صايغ

عرض ونقد :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى



الشريف حسين

يعتبر هذا الكتاب الجزء التالى لكتاب ظهر للمؤلف منذ أمد وجيز بعنوان « الهاشميون والثورة العربية الكبرى » فى سلسلة من الكتب يقول أنه اعتزم وضعها ويتناول فيها موضوعا واحدا متشعبا هو علاقة الأسرة الهاشمية بالقضايا القومية العربية ، وهى قضايا مصيرية وكتاب اليوم يعالج موقف أربعة من كبار رجال الجيل الماضى من الأسرة الهاشمية حيال قضية فلسطين خلال فترة حافلة بالأحداث ، تمتد قرابة نصف قرن من مولد الحركة الصهيونية فى أواخر القرن التاسع عشر حتى اغتيال الملك عبد الله سنة ١٩٥١ . أما هؤلاء الأربعة فقد طواهم الموت تباعا ، مات بعضهم حتف أنفه ، ومات البعض الآخر مقتولا ، وهم : الملك حسين بن على ، وولداه الملك فيصل الأول والملك عبد الله وحفيده الأمير عبد الاله . وقد سلط المؤلف الأضواء على الملك عبد الله بالذات ، **فأظهره أميرا ثم ملكا اعتبر قضية فلسطين مسألته الخاصة ومسألة الأسرة الهاشمية الخاصة** ، وليست قضية شعب بكامله وجزءا من القضية العربية القومية الشاملة ، ثم اتخذ من نكبة فلسطين سنة ١٩٤٨ وسيلة لمواصلة السعى ابتغاء تحقيق حلمه القديم وهو اقامة دولة سوريا الكبرى شاملة سوريا ولبنان وشرق الأردن والقسم الذى تبقى للعرب فى فلسطين ، وتنصيب

نفسه ملكا على الدولة المرتجاة • ولهذا نجد المؤلف يختص عبد الله بالجزء الأكبر من بحثه • ونعتقد أنه لولا حرص الأستاذ أنيس صايغ على ذكر اسم الهاشميين فى عنوان الكتاب حتى يتمشى مع سلسلة الكتب التى يعتزم وضعها عن علاقة الهاشميين بقضايا العرب ، لأطلق على كتاب اليوم بحق « عبد الله بن حسين وقضية فلسطين»

يقع الكتاب فى عشرة فصول ضافية ، وقد جعل المؤلف من الفصلين الاولين مدخلا لموضوع دور الهاشميين فى قضية فلسطين • فتكلم فى الفصل الأول عن نشأة الاطماع الصهيونية والاستعمارية فى فلسطين وفند الفكرة التى روج لها الصهيونيون والقائلة بأن الحركة الصهيونية عميقة الجذور فى التاريخ ترجع الى عهود سحيقة موغلة فى القدم ، وأنها ليست لها أهداف استعمارية • ودلل على أنها حركة حديثة أوربية الأصول والنشأة ، عاصرت عهود الاستعمار والاستغلال الحديثة وتأثرت بهما وأثرت فيهما • وأفرد المؤلف الفصل الثانى لنشأة رد الفعل القومى العربى وأثبت وجود تيار عربى مبكر وعى خطر تزايد الهجرة اليهودية الى فلسطين فى أواخر القرن التاسع عشر ودعا الى المحافظة على عروبة فلسطين • ولم يبدأ المؤلف فى تناول صلب الموضوع الا متأخرا بعض الشىء بعد أن قطع من الكتاب اثنتين وخمسين صفحة •

أبرز المؤلف موقف الملك حسين بن على من وعد بلفور ، فقال ان الحكومة البريطانية أوفدت ـ بعد أن ذاع أمره ـ مندوبا الى جدة يسمى هوجارث ليشرح له وعد بلفور والمزايا التى يجنيها العرب من تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين • **فأبدى حسين استعداده التام لقبول الفكرة ووافق عليها بحماس ، وقال انه يرحب باليهود فى كل البلاد العربية** • وقد اعتمد المؤلف على مصدرين هما هوجارث ومقال كتبه حسين بنفسه بعد زيارة ضيفه البريطانى بوقت قصير ونشره فى جريدة القبلة التى كانت تصدر فى مكة • وقد كنا نود لو أن الأستاذ صايغ قد أورد المقال بأكمله فى ملحق للكتاب أو على الأقل نشر فقرات كاملة منه فى ثنايا العرض التاريخى • فان مثل هذا النشر يدعم القيمة العلمية للكتاب ويبدد كل شك قد يتطرق الى ذهن القارىء ، وبخاصة أن المصدر الأول وهو المبعوث البريطانى ليس فوق مستوى الشبهات • وقد اعتاد العرب أن يروا من الساسة الانجليز الذين اشتركوا فى قضية فلسطين بالذات صورا شتى من الكذب والنفاق وقلب الحقائق •

قرر المؤلف أن المخطط البريطانى الصهيونى قضى بأن تكون زعامة العرب لفيصل بن الحسين تمهيدا لاخضاع العرب لوعد بلفور ، لأنهم اعتقدوا أنه يمثل الزعامة المعتدلة ، فجعلوا منه صديقا للبريطانيين والصهيونيين وزعيما للعرب وراح لورانس يقدمه على أبيه واخوته • ونتيجة لهذا المخطط أعد المسئولون البريطانيون فى القاهرة مشروع لقاء بين فيصل ووايزمان تم على مقربة من العقبة فى الرابع من يونيو ١٩١٨ كان هو الاول من نوعه بين زعماء حركتين متناقضتين ليساعد اجتماعهما على تحقيق وعد بلفور • وكان هذا الاجتماع مقدمة لاجتماعات بينهما فى أوربا أسفرت عن عقد اتفاقية خطيرة جدا وقعها فيصل ووايزمان فى الثالث من يناير ١٩١٩ وافق فيها فيصل على تأسيس كيان فلسطينى منفصل عن الدولة العربية فى سوريا ، ونجد فيها ما هو أفدح فاذا **بالأمير العربى الهاشمى ـ غفر الله ذنوبه وتجاوز عن سيئاته ـ يتبنى وعد بلفور ويعد باتخاذ كل التدابير لتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين** على نطاق واسع والحث **عليها وبأقصى ما يمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين فى الأرض عن طريق الاسكان الواسع والزراعة الكثيفة** • وما نأخذه على الأستاذ المؤلف هو أنه لم ينشر النص الكامل لهذه الاتفاقية لأنها تشكل ـ بلغة رجال القانون ـ جسم الجريمة التى ارتكبها فيصل فى حق عرب فلسطين • وقد كانت الاتفاقية فى نظرنا أكبر خطأ سياسى وقع فيه فيصل • ويلاحظ أن وايزمان نشر فى كتابه Trial and Error النص الكامل للمادتين الثالثة والرابعة لأنه اعتبر هاتين المادتين تمثلان القمة فى الانتصار السياسى الذى أحرزه هذا الصهيونى على الامير فيصل • وقد فطن الكتاب الغربيون الى أهمية هذه الاتفاقية فنشر بعضهم النص الكامل لها أو للمواد التى تبرز استجابة فيصل للمطلب الصهيونى الرئيسى • ولم يكتفوا ـ كما فعل الأستاذ صايغ ـ بتلخيص بعض أحكامها ، ولا يرد على هذا الاعتراض بأن نص الاتفاقية قد نشره من قبل بعض الباحثين العرب

مثل الأساتذة جورج أنطونيوس ومحمود كامل والدكتور جلال يحيى وحسن صبرى الخولى ، كما نشرته الأمانة العامة لجامعة الدول العربية فى كتاب الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين المجموعة الأولى • لأن كل هذه المراجع تناولت قضية فلسطين من زواياها العديدة • أما الاستاذ صايغ فقد جعل محور كتابه هو دور الهاشميين فى قضية فلسطين فكان يجدر به ابراز موقف فيصل ازاء الصهيونية وقد تجسد هذا الدور فى اتفاقيته مع وايزمان •

وقد أحسن المؤلف صنعا بايراد ترجمة حرفية كاملة للرسالة التى بعث بها فيصل الى فرانكفورتر كبير الصهيونية فى أمريكا **وقد أفصح فيها فيصل عن عواطفه نحو الصهيونية** ، فهو معجب بها مدافع عن أهدافها يربط بينها وبين القومية العربية ويعتبرها قضية واحدة ويستنكر انتفاضات عرب فلسطين القومية ضد الصهيونية ويجرمها ويعتبر فلسطين بلدا لليهود • وان كنا نود أن يشير المؤلف فى هامش الكتاب الى مصدر هذه الرسالة التى ترجمها حرفيا حتى يستكمل الكتاب - وهو بحث ممتاز - الطابع الاكاديمى • ومن المعروف أنها نشرت كاملة فى كتاب وايزمان الذى سبقت الاشارة اليه • ثم يقول المؤلف ان الصهيونيين نشروا نص الرسالة - وكانت نصرا لهم - فى عدة صحف أمريكية وانجليزية ولكنه يغفل نشاط وايزمان الشخصى حين اذاع فى ٦ من مارس ١٩١٩ نص الرسالة أمام المؤتمر الصهيونى العام فى لندن • وقد علق المراسل الخاص لجريدة المقطم فى لندن على هذه الرسالة - بعد أن اطلع عليها أو استمع اليها - بأن الأمير فيصلا « حدد بأرق عبارات المودة التى سبق فقطعها بعطف العرب وتمنيهم تحقيق أمانى الصهيونيين » العدد ٩١١٧ الصادر يوم السبت ٨ من مارس ١٩١٩ ص ٣ مجموعة السنة ٣١ • ويجرنا الكلام عن جريدة المقطم الى تصحيح خطأ - مطبعى بلا شك - جاء فى الكتاب فقد ذكر الاستاذ المؤلف (ص ٦٧) أن المقطم تجرأ ونشر وعد بلفور فى التاسع من نوفمبر ١٩١٧ • والواقع أن المقطم لم ينشر شيئا عن الوعد فى هذا اليوم • ولكن نشر الوعد مرتين خلال ٤٨ ساعة ، المرة الأولى برقية من مراسله الخاص فى لندن تضمنت نص الوعد ونشرها فى العدد ٨٧١٧ الصادر فى يوم السبت ١٠ من نوفمبر ١٩١٧ ص ٥ مجموعة السنة ٢٩ والمرة الثانية برقية تضمنت نص التصريح أيضا أذاعتها وكالة رويتر من لندن فى ٨ من نوفمبر ونشرها المقطم فى العدد ٨٧١٨ الصادر فى يوم الاثنين ١٢ من نوفمبر ١٩١٧ ص ٣ مجموعة السنة ٢٩ •

بقى أن نقرر هنا أن المؤلف نجح فى كشف موقف فيصل سواء بعقد اتفاقيته مع وايزمان أو فى مذكرته الى مؤتمر الصلح أو فى رسالته الى فرانكفورتر ، فقد أخرج فلسطين من حظيرة الدولة العربية المنشودة لأنه «**مستعد لأن يتساهل مع الصهيونية اذا أمن له الانجليز عرش سوريا** •• ان عرش سوريا هو ما أقلق بال فيصل • هذا الكنز الذى من أجل الحصول عليه فرط بحقوق العرب » • ولكن كانت فرنسا أصلب من أن تترك لفيصل سوريا ولبنان ، وكان الانجليز والصهيونيون أحذق من أن يسيئوا الى علاقاتهم بفرنسا من أجل فيصل ، فوقفت هذه القوى الثلاث فى صف واحد وأخرجت فيصلا صفر اليدين من سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن معا • فلما عين ملكا على العراق انتعشت الحركة الصهيونية فى هذا الاقليم العربى ، وقد بسط المؤلف مظاهر هذا الانتعاش وأهداف فيصل من التقرب الى الصهيونيين •

وكشف المؤلف عن مشروع خطير فكر فيه الملك حسين بن على حين زار الاردن فى أواخر ١٩٢٣ ومكث فيها حتى ربيع السنة التالية، فقال انه اتصل بزعماء الصهيونيين وعرب فلسطين فى آن واحد • وعرض عليهم مشروعا بضم فلسطين الى اتحاد عربى آسيوى يجلس على عرشه ، وفى الوقت نفسه يجرى الاعتراف بوعد بلفور وفتح أبواب هذا الاتحاد أمام المهاجرين اليهود • ووصف الاجتماع الذى عقده مع الصهيونيين فى ٢٧ من يناير ١٩٢٤ وطالبوا فيه باقامة وطن قومى لهم فى فلسطين وطلبوا من حسين أن يساعدهم فى تحقيق أمنيتهم • فما كان من حسين الا أن « **فتح عباءته واسعا وقال ان قلبه وبلاده مفتوحان لليهود • وانه على استعداد لأن يعطى اليهود الارض مجانا اذا دخلوا من الباب ولم يفتحوا ثغرة فى الجدار** • » والفقرة الاخيرة تحمل معنى التعريض بعلاقات الصهيونية مع بريطانيا ورغبة حسين فى أن يكون اتصال الصهيونيين بالهاشميين

اتصالا مباشرا • وانتقل المؤلف الى مساعى حسين مع زعماء العرب الوطنيين فلما أخفقت محاولاته معهم استعاض عنهم بنفر من وجهاء البلاد عرفوا بالتساهل فى حقوق العرب • ثم توقف المشروع فجأة فى مارس ١٩٢٤ لأن حسينا اضطر الى العودة الى الحجاز بعد أن انتهز فرصة الغاء الخلافة العثمانية وادعاها لنفسه • واضطر بعد أن أصبح خليفة أن يوقف اتصالاته بالصهيونيين • ولم تستأنف المباحثات بعد ذلك بسبب تطور مركز حسين السياسى والاسلامى وخلعه عن الملك والخلافة ونفيه الى قبرص • ويقول المؤلف ان الصهيونيين حافظوا على صداقتهم له الى آخر أيام حياته • فلما نقل الى عمان بعد أن اشتد به المرض زاره فى فبراير ١٩٣١ الكولونيل كش F.M.Kisch رئيس اللجنة التنفيذية فى الوكالة اليهودية **ومعه عدد من كبار الاطباء اليهود المتخصصين تولوا علاجه على نفقة الوكالة اليهودية •**

بدأ المؤلف حديثه عن عبد الله بموضوع الانتداب البريطانى على شرق الاردن وفلسطين فقال انه لم يبد اهتماما خاصا بالمسألة الصهيونية قبل أن يصل الى عمان وتبدأ اتصالاته مع البريطانيين لينصبوه أميرا على الامارة التى صنعت خصيصا له • وكان الثمن الذى دفعه هو اعترافه بالانتداب البريطانى على فلسطين وشرق الاردن ، وهو انتداب تبنى وعد بلفور واريد منه تحقيق هذا الوعد فى الوقت الملائم • **وخلص المؤلف الى أن تنصيب عبد الله أميرا على شرق الاردن كان اجراء لجأت اليه الدبلوماسية البريطانية ابتغاء تنفيذ المخطط الصهيونى لابتلاع فلسطين • والمؤلف يتهم عبد الله اتهاما خطيرا فيقول انه كان يعلم هذا الدور الذى أريد له ، وقد حدثه فيه كل من لورانس وتشرشل وهربرت صمويل** ولكن لا يذكر المؤلف أسانيده فى قيام المحادثات بين عبدالله وبين هؤلاء الساسة الانجليز الثلاثة •

تكلم المؤلف عن اتجاه عبد الله الى الاستعانة بالصهيونيين لتكوين ثروة خاصة به ولو كان ذلك على حساب كيان شرق الاردن • **فكانت عروضه** السخية للصهيونيين تارة لبيع مساحات واسعة من الاراضى وتارة لتأجير أراض أخرى ونجحوا فى الحصول منه على اذن فى اسكان ١٥٠٠ عائلة على هذه الاراضى • وقال المؤلف ان الانجليز عارضوا هذه المحاولات لأنها كانت تساعد الصهيونيين فى التسلل الى ما وراء نهر الاردن وكان الانجليز يريدون أن يظل شرق الاردن تحت نفوذهم المباشر وخافوا اذا استولى عليه الصهيونيون أن يحرموهم من ممارسة سيطرتهم ومن ثم أرغموا عبد الله على التوقف عن تعاونه مع الصهيونيين وخلص المؤلف من ذلك الى **أن الانجليز وليس عبد الله هم الذين حموا الضفة الشرقية من الاردن من المصيبة التى عمل الانجليز أنفسهم على انزالها بفلسطين •** وكانت أهدافهم هى حماية المصالح البريطانية فى المنطقة ، وتوزيع القوى بين العرب واليهود ، وتدعيم شعبية الهاشميين فالمخطط البريطانى لشرق الاردن قام على عدم السماح للصهيونيين بابتلاعه ، لأن الانجليز أرادوه لأنفسهم •

وانتقل المؤلف الى نقطة هامة هى موقف عبد الله من المشروعات التى قدمها الانجليز أو الصهيونيون خلال ربع قرن من الزمن لتقسيم فلسطين ، فقال : **ان عبد الله قبل المشروعات التى كانت تقول بضم الجزء العربى من فلسطين الى شرق الاردن ورفض المشروعات الاخرى التى لم تقرر هذا الضم** • وانتهى المؤلف الى أن هذا الموقف يوضح مصلحة عبد الله الانانية غير القومية فى تأييد بعض المشروعات ومعارضة بعضها الآخر • وهو رد على الذين يحملهم الولاء للبيت الهاشمى على أن ينعتوا مواقف عبد الله من مشروعات التقسيم بالحصافة وبعد النظر • ثم لخص أهداف عبدالله من موقفه ، فقال انه أراد أولا توسيع رقعة ملكه بأى ثمن ، وليقف ثانيا فى وجه منافسه الهاشمى الآخر فى العراق وفى وجه منافسيه فى السعودية ومصر ، وليمهد ثالثا لاحتلال سوريا ولبنان وتكوين دولة سوريا الكبرى التى حلم بها منذ أن نصب أميرا على شرق الاردن ، وكانت فلسطين كلها أو جزءا منها على الأقل يخدم هذه الأغراض •

نجح المؤلف فى شرح العوامل العديدة التى ساعدت على التقارب بين الحركة القومية العربية وبين النازية قبيل الحرب العالمية الثانية وقال انه كان من أبرز هذه العوامل العداء المشترك للصهيونيين ، وقد فهمه الألمان عنصريا ضد اليهود كطائفة ، وفهمه العرب سياسيا ضد ما يهدد مصالح بلادهم • ونظر العرب للصهيونية على

انها جرثومة اذا استأصلوها فقد استأصلوا معها تلقائيا جراثيم أخرى لعدة أمراض . ولئن كان تشرشل قد استباح التعاون مع الشيطان ضد الالمان فان العرب استباحوا التعاون مع الالمان ضد الشيطان . ولكن قرر المؤلف أن العرب لم يشتركوا فى الحرب مع المحور ، وأن القليلين الذين انضموا الى صفوف المحور كانوا يقيمون فى ايطاليا وألمانيا وقتذاك ، لأن الحلفاء طردوهم من بلادهم أو نفوهم . أما معظم العرب فقد أخلدوا الى السكينة ولم يتعد التأييد العربى نطاق المشاعر العاطفية .

واهتم المؤلف اهتماما خاصا بابراز حقيقة تاريخية هامة هى أن الاحتلال البريطانى للعراق فى سنة ١٩٤١ كانت قد وضعت خطته قبل أن يؤلف رشيد عالى الكيلانى حكومة الدفاع الوطنى فى أول أبريل ١٩٤١ وأن الانجليز اتخذوا من انقلاب الضباط ذريعة لاحتلال العراق ، **وأن الانجليز هم الذين بدأوا الحرب وليس العراقيون** كما يظن أغلب الناس ، وقرر أنه كانت هناك أسباب أكثر جدية وعمقا حملت بريطانيا على هذا الاجراء العسكرى ، هى رغبتها فى المحافظة على مصالحها فى المنطقة بعد أن هددت الحركة الوطنية العربية هذه المصالح من داخل الوطن العربى ، بينما هددها تقدم قوات المحور فى أوربا وآسيا وافريقيا من الخارج . وقال المؤلف ان الانجليز والهاشميين والصهيونيين شوهوا الثورة الوطنية فى العراق فصوروها بأنها أجنبية الاهداف والدوافع . وأكد انه لم تكن هناك مساعدات ألمانية للعراق ولم تكن هناك اتصالات مسبقة مع النازيين وأى ناقد محايد وهو يقبل هذه الحقائق لا يسعه الا أن يقف أمام الانكار الجازم بأنه لم تكن هناك اتصالات مع النازيين والواقع أنه كانت هناك اتصالات سرية بالمحور ترجع الى سنة سابقة ليس هنا مجال التحدث عنها ، ولكن حسبنا أن نشير الى بعضها فقد أوفد الكيلانى فى صيف ١٩٤٠ ناجى شوكت وزير العدل الى فون بابن السفير الألمانى فى أنقرة ودبرت مقابلة سرية فى ٥ من يوليو ١٩٤٠ ، كما قدم السفير الايطالى فى بغداد - جبرايلى - الى الكيلانى فى ٧ من يوليو ١٩٤٠ تعهدا كتابيا باسم الكونت شيانو وزير خارجية



ايطاليا بأن بلاده تهدف الى تأمين الاستقلال التام لكل من سوريا ولبنان والعراق والبلاد التى تحت الانتداب البريطانى ، وكذلك المهمتين السريتين اللتين عهد بهما الى عثمان كمال حداد السكرتير الخاص لمفتى فلسطين وكان مقيما فى بغداد ، فذهب الى برلين خلال أغسطس وسبتمبر ١٩٤٠ وقدم مذكرة للحكومة الألمانية بالمطالب القومية العربية . وكانت المرة الثانية فى يناير ١٩٤١حمل فيها رسالة من المفتى الى الفوهرر نفسه . والمؤلف يشير الى قيام مثل هذه الاتصالات اذ يقول «وكان الكيلانى قد حصل على تأييد خطى رسمى من الحكومة الالمانية باحترام استقلال الدول العربية ضد الاخطار الفرنسية البريطانيةالتركية وبالعطف على الحركة الوطنية فى البلاد العربية كلها » .

ويبدو من أول وهلة أن المؤلف قد ابتعد عن صلب موضوع البحث حين تعرض للحكم الوطنى فى العراق ورجال المربع الذهبى لأنه لم يتسع الوقت أمام هذا الحكم للاهتمام جديا بموضوع فلسطين ولكن يعود المؤلف فى لباقة الباحث المتمكن من بحثه فيشرح الاهداف التى توخاها الصهيونيون من اشتراكهم مع الانجليز والهاشميين فى الحملة العسكرية على العراق سنة ١٩٤١ . فقال : ان الصهيونيين أرادوا مساعدة بريطانيا فى مد نفوذها الى العراق والحصول على الأسلحة والتدريب العسكرى اللازمين لتحقيق الامل الصهيونى فى الاستيلاء على فلسطين بعد الحرب وضرب العناصر الوطنية فى العراق التى سبق

أن ساندت ثورة فلسطين العربية وتثبيت العرش الهاشمى الذى عرف بصداقته للصهيونية منذ عام ١٩١٨ · وقد نهج المؤلف نفس النهج حين تعرض للاحتلال البريطانى لسوريا ولبنان فى صيف ١٩٤١ وتبرع الهاشميون والصهيونيون وقتذاك بالاسهام بقواتهم فى احتلال البلدين العربيين ·

والمؤلف بوجه عام عنيف بل مسرف فى عنفه وهو يتعرض للهاشميين فهو يذكر مسائل لا تمت بصلة الى قضية فلسطين مثل هروب الأمير عبدالاله الوصى على عرش العراق فى ٢ من أبريل ١٩٤١ وهو مرتد ثياب امرأة وجلوسه على أرض سيارة وزير أمريكا المفوض بين قدمى الوزير وزوجة الوزير وسارت بهم السيارة من بغداد الى مطار الحبانية ، ثم يتكلم عن اقامة عبد الاله فى القدس عدة أسابيع ضيفا على سلطات الانتداب فى فندق الملك داود الذى امتلأ بالفنانات أقبلن للترفيه عن الامير المخلوع ، وكيف حمله الانجليز الى بغداد ودخلها فى حراستهم بعد أن تم القضاء على الحكم الوطنى فى العراق · وكنا نود أن ينأى قلم المؤلف عن هذه المسائل وأمثالها ويحصر بحثه فى المسائل العامة حتى لا يتهم بالتحامل على الهاشميين فى كل صغيرة وكبيرة · وعزيز على الناقد المحايد أن تلحق هذه المظنة بالكتاب وهو بحث موضوعى ممتاز · لقد وصف المؤلف فى نفس الفصل السابع عبد الله بأنه **الحليف** المزمن لبريطانيا ، ونعتقد أن لفظة **عميل** هى أكثر انطباقا عليه وأقرب الى الدقة من كلمة حليف ·

والمؤلف يكشف دور عبد الله بعد صدور قرار الامم المتحدة بتقسيم فلسطين فيقول انه أوفد رئيس وزرائه توفيق أبوالهدى باشا ومعه الجنرال جلوب الى لندن فى أوائل ١٩٤٨ ليتفق مع الحكومة البريطانية على طريقة تنفيذ قرار التقسيم حين يحين موعد انتهاء الانتداب، **فيدخل الجيش الاردنى فلسطين بحجة حماية فلسطين كلها ومحاربة اسرائيل ويحتل القسم العربى ويضمه الى شرق الاردن دون أن يحارب اليهود بالمرة** ، وتعهد أبو الهدى لبفن وزير خارجية بريطانيا بألا يعتدى الجيش الاردنى على اليهود بأى شكل كان وألا يحتل شبرا واحدا من القسم الذى أعطته الامم المتحدة لليهود · وانتهت المفاوضات بهذه الاتفاقية ، والشعب المناضل فى فلسطين يجهل أن ملك الاردن باعه بهذه السهولة وهذا الرخص · وعقد عبد الله فى ابريل ١٩٤٨ اتفاقا سريا مع شاريت اتفاقية على اتباع سياسة واحدة تجاه قرار التقسيم تقوم على قبوله وتنفيذه لمصلحة الطرفين ·

كان هذا المخطط الهاشمى البريطانى الصهيونى يقوم على انفراد الجيش الاردنى بالعمل فى فلسطين بعد انتهاء الانتداب ولكن قرار مصر وغيرها من الدول العربية بدخول الحرب من ناحية ، ونضال عرب فلسطين ضد الصهيونية من ناحية ثانية ، قلب ذلك المخطط رأسا على عقب والمؤلف ينصح عبد الله اذ يتكلم عن دعوة وجهها الى جولداماير — مديرة المكتب السياسى فى الوكالة اليهودية وقتذاك — لزيارته فى عمان · **فذهبت اليه متنكرة فى زى امرأة مسلمة محجبة** وقضت ليلتها فى قصر الملك ومعها عزرا دانن مستشار الوكالة اليهودية للشئون العربية · وتم هذا الاجتماع قبل بدء حرب فلسطين بثلاثة أيام · واعتذر لها عبد الله لأنه اضطر الى مخالفة اتفاقه مع اليهود ما دام الجيش الاردنى لن يكون بمفرده فى الميدان · ولكنه **طمأنها الى أن الحرب ستكون شكلية فقط ، وأن جيشه لن يدخل الا القسم الذى** خصصته الامم **المتحدة للعرب · وتعهد لها بانهاء القتال الشكلى بعد زوال ضغط الجامعة وبعض الدول العربية** · وفى نفس اليوم الذى تم فيه اجتماعه بجولداماير اجتمع عبد الله بقادة القوات العربية فى قاعدة الجيش الاردنى فى الزرقاء وتدارس معهم خطة الهجوم على فلسطين لتحريرها !! وخلص المؤلف من ذلك الى ما أطلق عليه **الازدواجية الهاشمية فى قضية فلسطين** وهو يعنى بها السياسة ذات الوجهين وشرح طرفا آخر من مظاهر هذه السياسة التى اتبعها هاشميو الاردن والعراق على السواء ·

وقرر المؤلف أن عبد الله قد أصر على أن يتولى قيادة القوات العربية المشتركة ووافق القادة على ذلك حفاظا على وحدة الصف وسرعان ما وضع مخططا جديدا للهجوم يناسب غاياته واتفاقاته السرية مع الانجليز واليهود · وتكلم عن **دور الجيش العراقى فى حرب فلسطين فقال انه كان دورا محدودا جدا** بسبب موقف قيادته الخاضعة

للقصر مباشرة حتى أن جنودا وضــباطا كثيرين أصيبوا بانهيار عصبى من جراء منعهم من محاربة العدو وانهم كفروا بالعرش والحكومة فى بغداد لما أدركوا الخديعة التى صنعها هؤلاء ، وفى نفس الوقت عملت حكومة بغداد على تنفير جيشها من حرب فلسطين بشتى الوسائل وقد تعمد عبد الله وضع قوات الجيش الاردنى على مقربة من الاماكن المهمة لتحمى اليهود من العرب عند اســتيلائهم عليها • وهكذا تساقطت المدن العربية تباعا فى أيدى اليهود •

ويشير المؤلف الى **الحقد الذى كان يفتعل فى نفس عبد الله على مصر وجيشها** فيقـول انه فى نهار اشتد فيه القتال بين القوات العربية واليهودية انصرف عبدالله من متابعة القتال الى توجيه احتجاج شديد اللهجة الى الســلطات المصرية لأن العلم المصرى ارتفع فوق بناية فوق بيت لحم سنتيمترات قليلة أعلى من علم شرق الاردن • وقرر المؤلف أن عبد الله وقائده جلب Glubb كانا يسخران من الجيش المصرى ويشيدان بكفاءة الجنود اليهــود وكانا يعملان حثيثا لتحطيم سمعة الجيش المصرى واستعرض المؤلف التصرفات المتعمدة التى صدرت عن عبد الله للاضرار بالجيش المصرى أثناء حصار الفالوجا • وقال **ان عبد الله عاتب اليهود لانهم لم يمنعوا المصريين من أخذ غزة ولم يحتلوا غزة أثناء اشتباكهم المظفر مع الجيش المصرى فى النقب ، فرد موشى ديان على هذا العتاب قائلا : الله يقدرنا على تنفيذ مايرغب فيه سيدنا » • وأنصف المؤلف** مصر فقال : انها تحملت ثلاثة أرباع نفقات حرب فلسطين عسكريا ، وقدمت نصف شهداء العرب غير الفلسطينيين فى الحرب ، وأرسلت الى ميادين القتال عشرة آلاف جندى ، واستطاع جيشها أن يحتل ثلاثة حصون فى فلسطين منذ الاســـابيع الأولى من القتال •

وكشف المؤلف عن حلقة أخرى من خيـانات عبد الله حين **عقد فى آخر أيام الهدنة الاولى اتفاقا مع الاسرائيليين نزل لهم فيه عن جبل سكوبس، شـــاملا مستشفى هداسة والجامعـــة العبرية ومستشفى فيكتوريا وقرية اليسوعية** ، وجعـــل المنطقة أرضا دولية باشراف شرطة اسرائيلية هى فى الواقع فرقة من جيش العدو • وانتقل المؤلف الى مشروعات عبد الله بعد انتهاء حرب فلسطين فقال : انهـا كانت ثلاثة هى ضم القسم العربى من فلســطين الى مملكته والصــلح مع اسرائيل واقامة دولة سوريا الكبرى وتنصيب نفسه ملكا عليها فكان عبد الله يعتبر مأساة فلسطين وسيلة لتحقيق حلمه القـــديم ، **واهتم** المؤلف بتصحيح خطأ شائع هو أن عبد الله قد فاوض اليهود بعد أن حاربهم ، والصحيح انه فاوضهم حتى وهـــو **يحاربهم** • وكانت هذه المفاوضات استكمالا لما سبق من محادثات بينه وبين شاريت وجولداماير قبل منتصف مايو ١٩٤٨ • وقال ان الفرق بين مفاوضات ما قبل الحرب وما بعدها ان عبد الله كان يفاوض الصهيونيين قبـــل ١٥ مايو ١٩٤٨ ليظفر برضائهم ورضاء الانجليز عنه ويكسب أموالا منهم • **أما بعد مايو ١٩٤٨ فان عاملا جديدا** غير الطمع أخذ يلعب دوره ، هو عامل الفزع من الصهيونيين ، واختار عبد الله الطريق الانهزامى واستسلم لرغبات الصهيونيين استسلاما شبه مطلق معتقدا أنه بهذا **يحمى** مملكته ، وكان يأمر جيشه بعدم اســـتفزاز **العدو** والســكوت عن استفزازاته •

وألقى المؤلف الضوء على مفاوضات عبـد الله للصــلح مع اسرائيل واستعرض مراحل هذه المفاوضات سواء بوساطة Kenneth Blly وهـو صحفى امريكى كان يعمل مراسلا لجريدة هيرالد تربين فى الشرق الاوسط ، أو بوساطة قنصـل بلجيكا العام فى القدس وقد حمل الاخير اليه رد اسرائيل وهو أن تجرى المراحـــل التمهيـــدية للمفاوضـــات فى باريس حيث استمرت طوال شهرى اكتوبر ونوفمبر ١٩٤٨ بعلم وتشـــجيع الوسيط الدولى رالف بنش الذى خلف الكونت برنادوت • ثم انتقلت المفـــاوضات الى القدس وتولاها بعد حين عبد الله بنفسه • وقد وافق على طلب اليهود بأن ينسحب الجيش العراقى من فلسطين فاجتمع عبد الله مع ابن أخيه الامير عبدالاله ووافق الاثنان على أن ينزل البلدان على رغبة اليهود • وبعث عبد الله الى اليهود يبشرهم باتفاقه مع ابن أخيه • ووافقت اسرائيل على ضم قسم من فلسطين الى الاردن ، بل طالبت باجراء هذا الضم بسرعة **وطالبت أيضا بأن يعمل عبد الله على طرد المصريين**

من بيت لحم والخليل ، كما طالبت بتأجيل بحث مصير القدس وحصر الموضـــوع بين الطرفين ، ووافقت على عقد هدنة دائمة . ووافق عبد الله على جميع الشروط مع **تحفظين** : بخصـوص الهـدنة الدائمة طلب ابقاءها سرية خشية احراجه أمام شعبه ، وبخصوص القدس اقترح تقسيمهـا بين الطرفين يأخـــذ هو البلدة القديمـــة ويأخذ الاسرائيليون الاحيــاء الحديثة وانتقلت المباحثات الى جزيرة رودس .

قارن المؤلف بين المباحثات التى اجرتها كل من مصر والاردن مع اسرائيل فى رودس فقـــال ان المباحثات المصرية كانت علنية بحضـور مندوبى الامم المتحدة ، ورفضت الحكومة المصرية أن تجرى مفاوضات خاصة مع العـــدو ، ورفضت عرض **رئيس حكومة اسرائيل بأن يساعدها فى سعيها لتحقيق الجلاء عن قناة السويس ان هى صالحت اسرائيل** . أما مفاوضات عبد الله فكانت تختلف عن ذلك كل الاختلاف فى الظروف والغايات والشكل . ثم شرح المؤلف أوجه الاختلاف ، ثم قال انه فى اثناء مباحثات عبد الله مع اسرائيل أرسلت الأخيرة قوات عسكرية احتلت ايلات على خليج العقبة مع منطقة مساحتها ثلاثة آلاف كيلو متر مربع ذات أهمية استراتيجية بين آسيا وافريقيا واعترف عبد الله سريعا بهذا الاحتلال . وأمر الوفد الأردنى فى رودس بأن يقتدى به . ومن ثم شرع الوفدان الأردنى والاسرائيلى يدرسان الحدود حسب الأمر الواقع . وتنازل عبد الله لاسرائيل عن النقب كله وتبادل الطرفان الهدايا فقدم عبد الله خنجرا وقدم الاسرائيليون له هدية ذات مغزى بعيد عبارة عن توراة تحمل خريطة فلسطين ومن ضمنها شرق الأردن وسوريا ولبنان والعراق . وانتقل المؤلف الى ايضاح الفروق بين من الدار رقم١٠ شارع داوننج مقر رياسة الوزارة الهدنة الثلاث الأخرى وهى المصرية والسورية واللبنانية . فقـال **ان اتفـاقية الاردن كانت الوحيدة التى تنازلت للعدو عن أرض لم يحتلها قط وعن أرض احتلها بعد بدء مفاوضات الهدنة** . وكان الأردن هو البلد العربى الوحيد الذى وقع عن المجموعة لعربية وتعترف للصهيونيين بحكم مصر وسـوريا ولبنان . وانمـا برغبة مليكه ورضائه التام .

واهتم المؤلف بمناقشة **مفاخرة كاذبة** روج لها الهاشميون فى العراق حين أذاعوا أن العراق هو البلد العربى الوحيد الذى لم يعقد مع اسرائيل هدنة وأطلق على هذه المفاخرة بأنها متاجرة وأنها فقدت معناها لأن العراق كان ضالعا فى المؤامرة السرية ضلوع الأردن نفسه ، وأن حكومة بغداد أصدرت أوامرها للجيش العـراقى بالانسحاب واستولى الأردنيون على المنطقة التى انسحب منها العراقيون وسلموا جزءا منها الى الاسرائيليين . كما أن العراق الهاشمى خدم اسرائيـل خدمة مباشرة حين سمح لعشرات الألوف من اليهـود المقيمين فيه بالهجرة الى اسرائيل ونقل ثرواتهم معهم ليذهبوا الى الوطن السليب ويغتصبوا ممتلكات سكانه النازحين منه ظلما .

وأفرد المؤلف الفصل العاشر والأخير من كتابه لمشروعات الوحدة فى التاريخ المعاصر وتكلم عن المشروعات التىاحتضنها هاشميو العراق والاردن ، وأهمها سوريا الكبرى والهلال الخصيب . ووصف كلا منها بأنه مشروع وحدوى جزئى وشرح شرحا طريفا الأهداف غير القومية التىابتغاها الهاشميون من قيام الدولة العربية الواحدة : امبراطورية هاشمية تستغل للمصالح العائلية وتستخدم ضد الدول العربية الاخرى التى يكن لها الهاشميون عداء تقليديا مثل مصر ، تحقيق مصالح بريطانيا وهى مصالح تتضارب مع المصالح العربية ، فصل عرب آسيا عن عرب افريقيا ، دولة تعتمد على تأييد بريطانيـا وتسقط من حسـابها التأييد الشعبى ، لأن فيصلا الأول وعبد الله وعبد الاله لم يكونوا يجهـلون أبدا أنهم يجلسون على عروش لا ترتبط بالشعب ارتباطا أصيلا ولا يعود للشعب فضل صنعها . ويقصـد المؤلف أن العرشين العراقى والأردنى قد صنعا فى لندن بقرار صدر من الدار رقم ١٠ داوننج مقـر رياسة الوزارة البريطانية وقـرر المؤلف أن هذه الوحدة تقصى الشعب وتشـل الحركات الوطنية وتقرب منهـا حركات رجعية ذات تاريخ مشبوه وخلص الى أن هذه الأهداف الهاشمية تشكل أخطارا حقيقية على الأمة العـربية فضـلا عن أنهـا تفصل مصر عن المجموعة العرشية وتعترف للصهيونيين بحكم جزء من فلسطين يتسللون منه تسللا شرعيا وغير شرعى الى أنحاء الدولة الواحدة .

وأوضح المؤلف أن وزارة العمال التى جاءت الى الحكم فى بريطانيا سنه ١٦٤٥ تلاقت مع الهاشميين فى مشروع سوريا الكبرى : وضعت مخططـــا يقوم على تقسيم فلسطين واقامه وطن قومى يهودى فى قسم منها وضم القسم المتبقى الى شرق الاردن ثم التمهيد لتنفيذ مشروع سوريا الكبرى كبديل للجامعه العربية • وانتقل الى وسائل عبد الله لتنفيذ مشروع ســـوريا الكبرى بعد أن رفضته الحكومات العربية • فقال انه استغل قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين فأعلن بعد ثلاثة أسابيع من صدور القرار أن انشاء سوريا الكبرى هو الحل الوحيد لقضية فلسطين • وقد خاض حرب ١٩٤٨ كاجــراء لتنفيذ التقسيم وكخطوة نحـو تحقيق سوريا الكبرى •

وتكلم المؤلف عن الاتحاد العربى الــذى تكون بين العراق والأردن كمحاولة لضرب أضخم انتصار سياسى حققته الحركة العربية منذ نشأتها بقيام الجمهورية العربية المتحدة • ولكن خابت الضربة وانهار الاتحاد على رأس مؤسسيه العراقيين بعد خمسة أشهر فقط • وانتهى المؤلف الى القول بأنه لابد أن تكون مصر مهدا ونواة للوحدة العربية اذا أريد للوحدة أن تنضج وتنتج وتستأصل جرثومة اسرائيل من جسم الوطن العربى الواحد •

بعد أن طوينا معظم أجــزاء الكتاب عرضـــا وتعليقا نسجل الملاحظات الآتية :

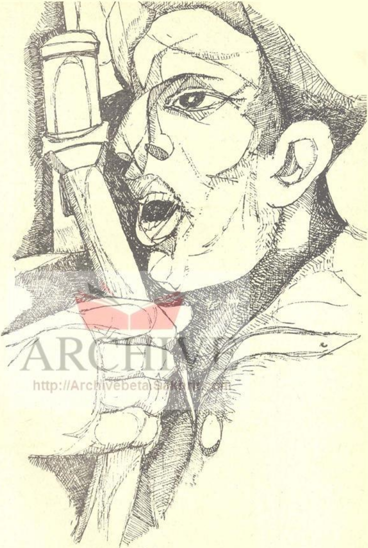
١ ــ يعتبر الكتاب من المراجع القيمة التى تعالج التاريخ العـــربى الحديث فى جدية وموضـــوعية وأصالة وينم عن مجهود ضـــخم ، ونعتقد أن هذا الكتاب سيفرض نفسه على المكتبة العربية أحقابا طويلة يستقى منه الباحثون مادة علمية غزيرة •

٢ ــ يعوز الكتاب أن يذيل بملاحق عن وثائق أشار اليها المؤلف فى سياق البحث ويتعذر على القارىء الوصول اليها •

٣ ــ كان المؤلف فى بعض الأحيان يغفل ذكر اسم الشـــخصية التى يتناولهـا ويكتفى بذكر المنصب الذى تشغله هذه الشـــخصية • وعلى سبيل المثال قوله فى ص ٣٢٧ « وزير معارف عبد الله المختص بشـــئون ســـوريا الكبرى حتى عرف باسم وزير سوريا الكبرى » وفى ص ٢٧٩ رئيس حكومة العراق ووزيرا الخارجية والدفاع •

٤ ــ كانت بعض العبــارات تعوزها الدقة فى التعبير وعلى سبيل المثال « العطف الشـــعبى على **المحور** كان موجودا فى كل بلد عربى ولم ينحصر فى العراق » ص٢٠٠ واستخدام كلمة **المانيا** بدلا من لفظة **المحور** أكثر دقة لأن الشـــعوب العربية قاطبة كانت توجس خيفة من أطماع ايطاليا فى العالم العربى اذ كانت تريد أن تجعل من نفسها وريثة لبريطانيا فى مصر والسودان وقناة السويس وغيرها من أرجاء الوطن العربى • وقد أشـــار المؤلف من قبل الى مخــــاوف العرب من الاطماع الايطالية •

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى



تأليف : غسان كنفانى

أدب المقاومة فى فلسطين

عرض ونقد
أحمد محمد عطيه

هنا على صدوركم باقون كالجدار
وفى حلوقكم
كقطعة الزجاج .. كالصبار
وفى عيونكم زوبعة من نار
هنا على صدوركم باقون كالجدار
ننظف الصحون فى الحانات
ونملأ الكئوس للسادات
ونمسح البلاط فى المطابخ السوداء
حتى نسل لقمة الصغار
من بين أنيابكم الزرقاء ..
هنا على صدوركم باقون كالجدار
نجوع ، نعرى ، نتحدى
ننشد الاشعار
ونملأ الشوارع الغضاب بالمظاهرات
ونملأ السجون كبرياء
ونصنع الاطفال جيلا ناقما
وراء جيل
كأننا عشرون مستحيل
فى اللد والرملة والجليل ..

المحتلة

بمثل هذا الاصرار الرائع العظيم ، يعد شعر المقاومة الفلسطينية فى الارض المحتلة ، أقوى مقاومة واعنف حقد ضد العدو الصهيونى ، وأشد ايمان بالنصر ، فالنصر هنا حقيقة على وشك الوقوع يكاد يكتسح ويحطم العدو نهائيا فى قسوة بالغة . وهو يواجه الدعاية الصهيونية باصرار على الرسوخ فى أرضه ، أرض الوطن العربى ، مهما لاقى من تعذيب وارهاب . هذه الابيات من قصيدة « المستحيل » للشاعر الفلسطينى « توفيق زياد » من « الناصرة » . وهى واحدة من قصائد كثيرة لشعراء فلسطين المحتلة ضمها كتاب رائد هو « أدب المقاومة فى فلسطين المحتلة » للكاتب الفلسطينى غسان كنفانى ، وأصدرته دار الآداب ببيروت .

لو نشرت سطور معدودة من محتويات هذا الكتاب فى الصحف ، لعدت سبقا صحفيا خطيرا ، ولكن المؤلف بالرغم من كونه صحفيا نشيطا ، لم يقع ــ عن وعى ــ فى بؤرة الاثارة الصحفية التى تفقد السطور جلالها واهميتها ، وفضل ان يضع القضية برمتها بين دفتى كتاب ، ليمثل أول مرجع عربى عن أدب المقاومة العربى فى فلسطين المحتلة .

وبالرغم من أهمية هذا الكتاب كبحث رائد ، وكشف لأرض أدبية عربية جديدة لم يتناولها البحث من قبل قط . الا أن الاقلام المصرية لم تتناوله من قريب أو بعيد ، فمن الظواهر المثيرة فى الحركة الأدبية العربية ، ظاهرة تخلف حركة النقد فى مصر عن متابعة النتاج الادبى فى شتى الاقطار العربية ، وهو تخلف كثيرا ما يثير عتاب الاخوة العرب ، بل واتهامهم للأدباء والصحافة فى الجمهورية العربية المتحدة بتجاهل الحركة الادبية فى الاقطار العربية «الحرية» (٢٩ أغسطس ١٩٦٦) . لان النتاج الادبى العربى فى مصر سرعان ما تتلقفه أيدى الادباء فى البلاد العربية وتضعه دائما فى الزاوية المضيئة . ومن هنا يبدو موقفنا كأدباء مصريين من البلاد العربية الشقيقة موقف عطاء لا موقف أخذ هذا بالرغم من أن الحركة الادبية فى البلاد العربية وخاصة فى لبنان تحتضن نتاجنا الادبى وتتابعه فى اهتمام زائد ، يبلغ حد احتضان البراعم العربية التى توحى بالعطاء ، وتفتح لها روافد النماء .. حتى ان بعض الاسماء الادبية لم تولد ولم توجد الا بفضل رعاية بيروت الادبية .. ومما يزيد من عمق هذه الظاهرة ــ تخلف النقد عن متابعة النتاج العربى العام ــ ان الحركة الادبية فى البلاد العربية ، حركة ابداعية فى الشعر أو القصة أو بالاصح والاعم حركة ترجمة نشيطة ، وهى عموما تفتقر الى حركة نقدية مصاحبة لها . فاذا نظرنا الى بيروت التى يشع منها كل هذا الاشعاع الثقافى العظيم ، لما عثرنا على أكثر من ناقد أدبى واحد هو الاستاذ حسين مروة ، يزاول النقد الادبى بأقدام ثابتة رصينة .. وربما بدا هذا حكما تعسفيا ، الا انه حقيقى ، ومراجعة لحركة النشر فى بيروت ، سواء فى المجلات الادبية ، أو فى منشورات دور النشر المختلفة ، لن نجد فى

السنوات الماضية سوى نقد الاستاذ مروة الذى زار مصر مؤخراً بدعوة من مجلة الطليعة وآخر كتبه « دراسات نقدية فى ضوء المنهج الواقعى » . ومن هنا يلتزم أدباء القاهرة بضرورة متابعة النتاج الادبى فى بيروت وغيرها من العواصم العربية ، لصالح الادب العربى بوجه خاص ، ومن أجل قضية الوحدة العربية بوجه عام . واذا كان الشعار المرفوع الآن ، نحو وحدة القوى الثورية فى العالم العربى ، نحو حركة ثورية عربية واحدة . فيجب أن يرتفع الى جانبه شعار آخر مماثل « نحو حركة أدبية عربية واحدة » « نحو وحدة الفنون العربية » .

لهذا بالرغم من أن الاستاذ غسان كنفانى – وهو كاتب فلسطينى – غزير الانتاج، جيد العطاء . الا أنه ظل بعيدا عن الاضواء فى بلادنا ، حتى كتب عنه الدكتور عبدالقادر القط منذ شهور قليلة فى أحد مقالاته بروز اليوسف . وهانحن نلتقط أحدث كتبه وأهمها ، ونتناوله بالدراسة ، محاولين تخطى ظاهرة الحبل المقطوع بين الحركة الادبية فى بلادنا وبين الادباء العرب .

غسان كنفانى كاتب وفنان متعدد الانشطة فهو روائى وكاتب قصة قصيرة ، وصحفى ، وكاتب دراسات سياسية ، ويمارس أحيانا وظيفة الناقد الادبى ، وتتعدد موضوعاته من محاولة لاكتشاف العقل الصينى الى نقد لأحدث أعمال الدكتور لويس عوض ، رواية «العنقاء» . وهو حتى من خلال هذه الفنون المتعددة يمارسها بازدواجية عجيبة، فهو تارة تقدمى يصل الى درجة أقصى اليسار ، وتارة بين بين ، وهو تارة واقعى وتارة لامعقول ، وتارة ثالثة تسيطر عليه حاسة الصحفى وأسلوبه حتى فى بعض قصصه (مثل قصته المسلسلة التى نشرتها مجلة الحوادث اللبنانية بعنوان « من الذى قتل ليلى الحايك ؟» ولعل مجرد عنوانها يدلنا على كنهها) وهو كناقد أدبى يهاجم الاهتمام بالجانب السياسى فى العمل الادبى ثم يبرره فيؤيده . ولكنه قبل كل ذلك وبعد كل ذلك ، كتاب فلسطينى مخلص أشد الاخلاص لوطنه السليب ، يرنو دائما وأينما كان – زمانا أو مكانا أو تعبيرا ادبيا – الى بلده الحبيب فلسطين ، فتظل تؤرقه النكبة وتدفعه دوما الى الايمان بمستقبل أفضل للشعب الفلسطينى فى أرض العودة وفى يوم العودة . وقد عده ناقدنا الدكتور عبد القادر القط « من بين الكتاب الذين استطاعوا أن يستعيدوا انفعالهم فى هدوء ويكتبوا عن نكبة فلسطين قصصا ممتازة بعيدة ببساطتها عن العاطفية المسرفة والنبرة العالية .. » (روز اليوسف ١٣ يونيو ١٩٦٦) وأكد الكاتب اللبنانى الدكتور سهيل ادريس انه « من المواهب العربية الجديدة التى تبشر بمستقبل باهر فى عالم الرواية . » (الحرية ٢٥ يوليو ١٩٦٦) .

اذا كان الادب الفلسطينى قد شهد نكبة موازية لنكبة فلسطين عند بداية حركة الهجرة واستيطان اليهود بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، فانه الآن يلتزم بدوره الاساسى ضد الاحتلال الصهيونى لفلسطين . فبينما كان اليهود يزيدون من حركة الهجرة ويؤسسون المستعمرات وينشئون أضخم صرح ثقافى صهيونى باقامة الجامعة العبرية فى حفل رسمى دعى اليه العلماء من العالم ، كان العرب يزيدون من المظاهرات والصخب . وذلك بسبب الوضع الاقتصادى المتخلف للشعوب العربية .. حتى اذا اجتمع أول مؤتمر للمثقفين العرب فى دمشق عام ١٩١٩ ، لم يواجه المزاعم الصهيونية الا بالدعوة الى الوحدة السورية لاقطار الشام ، وبمجموعة من المظاهرات الصاخبة التى لاتلبث أن تنفض ويعود الامر الى سيرته الاولى . (راجع الفصل الخاص بالغزوة الصهيونية وفلسطين بكتاب « النكبة والبناء » تأليف الدكتور وليد قمحاوى ، جا ، ط ٢ ص ٥٤ ومابعدها . وأيضا مقالنا عن الكتاب المنشور بالآداب البيروتية عدد فبراير ١٩٦٦) .

وكان الكتاب عملا رائدا ودراسة جديدة غير مسبوقة وأرضا بكرا تستكشف لأول مرة كل هذا حسنة تحسب للكتاب ، وفى مقابلها تحسب ضده سيئة ،لاستعماله كلمة أدب استعمالا خاطئا ، بصفة دائمة وبصورة متعمدة فى عنوان الكتاب « أدب المقاومة فى فلسطين المحتلة » ، بينما الادق ان يكون « شعر المقاومة .. » ، ولسنا بحاجة الى بيان الفارق بين الاثنين . فالكتاب كله عن الشعر والنماذج كلها نماذج شعرية ، والعمل النثرى الوحيد فى الكتاب هو الحكاية الخبرية التى أكد المؤلف أنها خبر يصلح أن يكون قصة قصيرة ، ليس كافيا لاسباغ صفة الادب على الكتاب . وكذلك فى الفصل الثانى من الكتاب المعنون خطأ «البطل العربى فى الرواية الصهيونية » ، بينما الفصل يتحدث عن البطل الصهيونى



أساسا وبشكل كمى يفوق الحديث عن البطل العربى فى الرواية الصهيونية . هذه ملاحظة أولية تتعلق بالشكل . والآن لنر فى ايجاز ماالذى يقدمه الكتاب لنا .

يتألف الكتاب من مقدمة وثلاثة فصول ، الاول عن « أدب المقاومة بعد الكارثة » ، والثانى عن « البطل العربى فى الرواية الصهيونية » ، بينما خصص الفصل الثالث لتقديم « نماذج من شعر المقاومة العربى » ، ويحتل هذا الفصل الاخير مايوازى نصف صفحات الكتاب تقريبا . وهذا يفضى بدوره الى فهم طبيعة الكتاب كمرجع أساسى يصلح أن يكون موضوعا لبحث أشمل عن أدب المقاومة الفلسطينية فى الارض المحتلة . ومن هنا فان الجهد الحقيقى الذى بذله مؤلف الكتاب ، هو فى تجميع مصادر البحث وليس فى البحث ذاته ، الذى لايخرج عن كونه مجرد تعليق على شعر المقاومة الفلسطينية الصامدة فى وجه العدوان الصهيونى .

يدلى المؤلف فى تقديمه للكتاب بجملة اعترافات تبريرية ولكنها صريحة وواضحة. وهى أول مايؤخذ على كتاب يحمل سمة البحث الموضوعى واسمه ، وهو ماينكره المؤلف انكارا يبلغ حد الاستنكار . وكما قلت فى مقدمة كتابى عن «مكسيم جوركى» ان ارتياد دراسة جديدة أمر مشوق ومثير بقدر ما هو عمل مقلق للراحة . ولعل هذا واضح فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا .. فقد اقتضت هذه الريادة من المؤلف تخصيص سنتين للحصول على مصادر الدراسة وهى بطبيعتها مصادر غير سهلة ، وتحتاج بالطبع ليس الى مجرد الجهد كما يحدث فى الدراسات العادية ، ولكنها تحتاج أساسا الى كثير من الجرأة والمغامرة الذى تعد ثمنا حقيقيا مقابل هذه الدراسة المثيرة الرائدة وغير العادية .

فالاستاذ غسان كنفانى يعترف منذ أول كلمة فى الكتاب بأن هذه الدراسة « تفتقر الى عنصر أساسى يتوقف عليه عادة جزء جوهرى من نجاح البحث ، وهو وفرة المصادر.» (ص ٥) وذلك لان آداب المقاومة لايتناولها البحث عادة الا بعد انتصار المقاومة ، ولان الكتابة عن أدب المقاومة لن تكتمل صورتها الا اذا كتبت من داخل المقاومة ذاتها وهو أمر متعذر بطبيعة الحال . هذا اعتراف . واعتراف آخر بأن الدراسة لاتخضع لمنهج البحث الاكاديمى ومن ثم تفتقر الى ماأسماه بالبرود الموضوعى ، أى الموضوعية . واذ افتقر البحث الى الأسس العلمية اللازمة لأى بحث ، واذ افتقر الى الموضوعية كذلك واعتبرها نوعا من البرود . فقد سقطت ـ عن هذا الكتاب ـ صفة البحث العلمى ، وبقى لنا حماس المؤلف وايمانه الشديد بأدب المقاومة الباسلة فى الارض المحتلة ، وتعلقه الوجدانى بالوطن السليب ولوثته العارمة المتعاطفة مع مايرد اليه من أبناء المقاومة رغم كل أجهزة القمع والارهاب الصهيونية التى تستخدم ضد اخواننا العرب داخل جحيم أسرائيل .

عندما يتحدث المؤلف ـ فى الفصل الاول من كتابه ـ عن أدب المقاومة بعد النكبة . يذكر بحق أن نكبة فلسطين لم تكن مجرد كارثة كمية على أهل فلسطين ، ولكنها كانتأيضا وبشكل أخطر كارثة كيفية ، بمعنى أنه بقدر ماخفض العدوان الصهيونى من عدد العرب فى فلسطين نتيجة لعمليات الابادة المجرمة التى شنت ضد مواطنين عزل ، حتى انخفض عددهم الى مائتى ألف عربى فقط ، فان نوع الباقين قد تأثر هو الآخر نتيجة لفرار أغلب سكان المدن والمثقفين الى البلاد العربية المجاورة ، فلم يتخلف سوى سكان القرى الذين كانوا بعيدين عن كل وعى سياسى وفكرى ، ومن ثم فقد كان الوضع مهيأ لقوات العدو كى تمارس مزيدا من القمع ضد أى وجود فكرى عربى ، وأيضا كى تثبت تيارات مشبوعة تعمل من داخل التنظيمات الصهيونية والفكر الصهيونى . بينما نتج عن رحيل القيادات السياسية والفكرية وقطاعات المدن المثقفة ، الى البلاد العربية . فترة صمت حزين ، صمت ذاهل من هول الصدمة . ولم يلبث أن صدر الادب الفلسطينى خارج فلسطين حماسيا غاضبا ، ثم تحول الى أدب هادىء حزين . وكان للشعر دور بارز فى هذا الادب الذى يعده الكاتب أدب منفى لا أدب لجوء ـ ولم يذكر سببا لهذه التفرقة ـ وهو بمسحة الحزن العميق الغالبة عليه ، أدب مساير لأحدث وسائل التكنيك الادبى على المستويين العربى والعالمى .

وفى الجانب المقابل ، فى داخل فلسطين المحتلة ، التى تبقى فيها عرب يعملون فى الزراعة ، بوسائل متخلفة عتيقة ، ويفتقرون الى وجود ثقافى عربى ، رزح العرب تحت نير القهر الصهيونى والحصار الثقافى الكامل ، المتمثل فى تحول المدن العربية ـ التى تفرخ عادة القيادات الثقافية والفكرية ـ الى مدن يهودية محرمة وعدوة . ويتمثل أيضا فى

قيام جدار أرهابى يفرض عزلة العرب فى الداخل عن كل حركة أدبية عربية فى الخارج ، ويضعف امكانية قيام وجود ثقافى عربى على أسس متقدمة وأصبحت حركة النشر كلها فى أيد صهيونية ومن خلال أجهزة صهيونية لاتنشر بالطبع مايعبر عن الوجدان العربى والفكر العربى ، كما أن الرقابة العسكرية الارهابية التى لابد أن يمر تحت بصرها وسمعها ، كل عمل أدبى عربى ، تقتل كل عمل صادق ولاتسمح الا بنشر مجموعة من التفاهات والاعمال الرخيصة . ومما زاد من تخلف الوضع الثقافى فى داخل فلسطين المحتلة ظاهرة عدم اتقان أية لغات أجنبية مما ساعد على انزواء الحركة الادبية وقصورها عن متابعة الفكر العالمى والامتزاج به .

وفى مواجهة هذا الارهاب الفكرى ، وبرغم الحصار الثقافى المقيت ، أثبت الادب الفلسطينى وجوده وتسلم مسئولياته مقدرا أنه لابد أولا وآخرا أن يكون أدب مقاومة ضد الاحتلال الصهيونى ، وانه تبعا لذلك لابد أيضا من تجاوز عقبات صدور الادب الفلسطينى العربى الصادق ، وتحديد أسلوب عمله ، فاحتضن طريق الشعر ، لسهولة تداوله شفهيا ، ولامكان احتوائه كل الحماس المطلوب لشد أزر العرب ولرفع راية المقاومة فى داخل الحصار الصهيونى الارهابى ذاته . ومن ثم فان هذا الشعر التزم أيضا بطبيعته كشعر مقاومة شفهى ، فاستخدم الشعر العامودى التقليدى والتزم بالعروض الخليلية ، التى تتيح له سرعة الحفظ والتداول والانتشار . ولان ثورة الشعر الحديث لم يصل مداها الى داخل الارض الفلسطينية للعزلة المفروضة عليها ، كما انتشر أيضا الشعر الشعبى الذى يتميز بسرعة التداول وسهولة التلقى . وقد تسلم الشعر الشعبى زمام قيادة الادب الفلسطينى بعد نكبة فلسطين ، فصار يلقى فى الافراح وحفلات الزفاف فتتحول بدورها الى مظاهرات صاخبة ضد العدو ، الذى اضطر الى أطلاق الرصاص لوقف ثورة الجماهير العارمة فى الجليل ، والى تقديم الشعراء الشعبيين للحاكم العسكرى الصهيونى . وفرضت رقابة صارمة على حياتهم الخاصة وتحركاتهم فحدت من حرياتهم الشخصية ، وبالرغم من ذلك فلا الارهاب ولا النار أفلحا فى أيقاف الحناجر الغاضبة عن الانشاد للوطن السليب ومواصلة المقاومة ضد المحتل الصهيونى . حتى تجدد الشعر الشعبى واتسعت قاعدة متلقيه ، وقامت مظاهرات صاخبة فى الناصرة فى مايو ١٩٥٨ ، وهاجم العرب قوات شرطة العدو ، وسقط منهم الشهداء ، ولم تخضع المقاومة العربية للارهاب الصهيونى . وتصاعدت أغنية شعبية تستمد قوتها وأملها من انتصار بورسعيد ، فتقول :

.. والناصرة ركن الجليل — فيك البوليس مد حولى
أرض العروبة تحررت — ديان شيل وارحل
اخواننا فى بور سعيد — الهم تاريخ مسجلى
لو وقعت سابع سما — عن أرضنا مابنرحل

ان المسألة المثيرة والرائعة حقا هى أن الانتصارات العربية والاتجاه الوحدوى الاشتراكى العربى غدت أملا عظيما ينير الطريق أمام قوى المقاومة فى فلسطين المحتلة ، ويفتح لادب المقاومة الفلسطينية آفاقا جديدة . فالاهزوجة الشعبية تطوف على ألسنة جماهيرنا فى فلسطين ، تؤمن بدور عبد الناصر فى قيادة الزحف العربى لتحرير فلسطين، وتواجه طغيان موشى ديان عندما أمر بمصادرة خمسة آلاف دونم من الاراضى العربية فى قرى نحف والبعنة ودير الاسد (منطقة الشاغور) ، فتقول :

نادى المنادى فى الجليل — أرض العروبة للعرب
شاغورنا مالك مثيل — وترابك أغلى من الذهب
وبوحدة رجال الشاغور — أمر المصادرة انشطب
دايان أمرك مستحيل — بالوحدة راح ينشطب

تسلم لينا يابوخالد حامى العروبة
لو تسمع رج الزغاليط
نوبة على نوبة

ويقوم الشعر الشعبى بمهاجمة الخونة الذين يدخلون الانتخابات الصهيونية تحت أطر صهيونية ، وتلعب المواويل والاهازيج الجماعية دورها فى المقاومة العربية للعدو ، فلاتستطيع نيرانه ان توقف سريانها .

ويحاول الصهيونيون تفتيت كل كيان عربى وتذويبه فى الكيان الصهيونى ، وقطع صلته الحميمة بالكيان العربى الخارجى وبالتراث العربى وبكل ما هو عربى ، ففضلا على فرض رقابة صارمة تحول دون نشر أى انتاج أدبى عربى جاد ، فهناك خطة لوقف نشوء جيل عربى مثقف ، وذلك بسد طريق التعليم الثانوى والعالى أمام الطلبة العرب والهبوط بمستواه العام ، وعزل من يفلت من هذا الحصار عن مواصلة المرحلة الثقافية ، ووأده فى أعمال مميتة أو البطالة . ومن هذا الصدد يقدم الاستاذ غسان كنفانى مجموعة من الاحصائيات الرسمية الحديثة (١٩٦٥) . فنسبة الطلبة العرب فى المدارس الثانوية بالقياس الى الطلبة اليهود ٣٪ بينما يجب ان تكون ١٢٪ ونسبة الطلبة العرب فى المعاهد العليا ١٪ . (ص ١٨ و ١٩ و ٢٠) .

وتصدر الاحزاب الاسرائيلية ١٦ صحيفة عربية ، ولكن العرب ممنوعون من اصدار صحيفة واحدة تمثلهم ، وكتاب هذه الصحف يهود قادمون من البلاد العربية ، ويصدر اليهود القادمون من بلاد عربية روايات وكتب ذات مستوى هابط . وحسب التقدير الرسمى ففى فلسطين ٢٨ شاعرا وكاتبا منهم ٨ من اليهود الشرقيين . أصدروا خمسة عشر ديوانا شعريا وخمس روايات منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن . وهى كتابات بالطبع ترضى الدعاية الصهيونية والا ماوافقت عليها الرقابة .

ولثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تأثير خطير وحاسم على الادب العربى فى فلسطين المحتلة كما وكيفا ، فبعد حوالى ثلاث سنوات من الشعر الغرامى فوجئت الصحف اليهودية بسيل من الكتابات الحماسية الثورية العربية ، تشكل تغييرا جذريا وتحولا خطيرا من الشعر الغرامى الذى رضيت به الصهيونية تماما وأملت أن تضيع فى طياته الجذوة العربية الملتهبة . فامتنعت الصحف عن نشر هذا الفيض الجديد ، فتحول هذا بدوره ليلقى فى امسيات شعرية صاخبة ، لم تلبث ان ووجهت بالارهاب العسكرية فالغيت تلك الامسيات ، وهو ـ كما رأى المؤلف بحق ـ « أغرب قرار يمكن أن يتخذه نظام من الانظمة » . الا ان هذا الشعر كان يلبى حاجة ضرورية ويعبر عن مرحلة جديدة قفز اليها الادب الفلسطينى فى الداخل والخارج ، بعد أن اجتاز فى الداخل مرحلة الشعر الغرامى ، وفى الخارج مرحلة الذهول أو « عدم التصديق » . ولعل من العجيب أن يلجأ أدب المنفى الذى يعيش بعيدا عن خط النار الى الحزن العميق بينما يلجأ أدب الارض المحتلة الى التحدى رغم كل أجهزة القسر والارهاب .



ويفسر المؤلف جنوح الشاعر الفلسطينى الى الغراميات فى أعقاب النكبة مباشرة وانهماكه فى هذا التيار المنحرف ، بأن المجتمع العربى داخل فلسطين واجه انهيارا فى علاقاته الشخصية بعد النكبة ، وتمزقا عنيفا ، فانطلق شعر الغزل ليعيد الارتباطات الشخصية ، وليسد الفراغ والوحدة اللذين سيطرا على اجتمع العربى الصغير الذى تحول الى أقلية غريبة معزولة فى داخل وطنها وعلى أرضها . وعندئذ أفاقت الجماهير العربية من هول النكبة وبدأت تقاوم وتتحدى العدو فى مواجهة ارهابه وأجهزته الدعائية والثقافية المتعددة .

فى عام ١٩٥٩ كونت مجموعة من اليساريين العرب منظمة «الارض» التى استغلت ثغرة فى القانون الاسرائيلى تسمح باصدار نشرة غير دورية مرة واحدة فى السنة . فأصدرت المنظمة صحيفتها تحت أسماء مختلفة «شذى الارض» ، «صرخة الارض» ... الخ



وأصدرت الصحيفة عددا خاصا فى مناسبة عيد النصر فى بور سعيد ، غطت فيه صورة عبد الناصر صفحتها الاولى بأكملها ، وخصصت باقى الصفحات لنشر نص خطاب الرئيس عبد الناصر فى بور سعيد ، فجن جنون الصهيونيين وأصدروا أوامر الاعتقالات والنفى ، ولكن ١٣ عددا من صحيفة منظمة الارض مازالت تتداولها الايدى العربية فى قدسية وحب ونظرا لاغلاق أبواب النشر فى وجه الكتابات العربية المخلصة لوطنها ، ظل أدب المقاومة الحقيقى يؤدى وظيفته الاساسية فى القرى والتجمعات الشعبية العربية ، ويسرى فى الجموع العربية عن طريق الحفظ الشفهى .

ويلخص المؤلف خصائص شعر المقاومة فى انه شعر تحد أكثر أشواقا وأملا من شعر المنفى ، وانه يتابع التحركات العربية فى البلاد العربية ، ويؤمن بالثورة العربية وبالوحدة العربية ايمانا كاملا ، وينفعل بالانجازات الثورية العربية بشكل يفوق الشعر العربى عموما ، ليس هناك أروع من شعر «حبيب قهوجى» أحد قادة منظمة «الارض» ابان العدوان الثلاثى :

اتندر بالدمار جمال مصر   وترجو النصر خفاق البنود
جهنم أرضنا فى وجه غاز   وفردوس لكل أخ ودود
قبعت بقرب مذياعى شرودا   وروحى عندكم رغم السدود
تحرق مهجتى وتذيب نفسى   معانقة المعارك من بعيد

(ص ٢٨)

من انتصار بور سعيد ، الى الوحدة العربية ، الى الثورة اليمنية ، الى غير ذلك من الامجاد العربية ، بعدها الشاعر الفلسطينى انتصارا لقضيته فيتغنى بها رغم الحواجز والارهاب . وهو أيضا يشارك بشعره فى المعارك اليومية المحلية داخل الوطن المحتل ، فيهاجم مشروعات المياه الاسرائيلية التى تشرد العرب من باقى أراضيهم ، ويهاجم أيضا مجالس القرى المزيفة ويحطم الخونة المتعاونين مع العدو ، وهو يموج بالامل الحقيقى فى عودة الارض الى أصحابها ، وانتهاء هذه المهزلة . ويورد المؤلف مثلا لامتزاج قضية الشخص والارض والوطن فى كل واحد ، بحكاية القروى العجوز « أبو حامد» الذى استولت العصابة الصهيونية على البقية الباقية من أرضه عن طريق حكم جائر ، فقال أبو حامد للقاضى اليهودى : « والله ياحضرة الحاكم شايف حكمكم زى قرن الخروب أسود أعوج ! » (ص ٤٠) ويذكر المؤلف أن هذه السخرية التى هى أحد أساليب المقاومة ، نجدها واضحة أيضا فى منشورات المقاومة السياسية ، ولم يقدم نموذجا واحدا لهذه المنشورات . ولكن السخرية ليست الا وجها من وجوه المقاومة الفلسطينية وواحدا من أساليبها المتعددة ، فخلال العدوان الثلاثى وجدت المقاومة الفلسطينية فرصتها السانحة للالتحام وتصفية الحساب ، وفى الذكرى التاسعة لمذبحة كفر قاسم وقف الشعراء بأسوارها بعد أن حوصرت ومنعوا من دخولها ، يصبون غضبهم على العدو ، وهذه الابيات من قصيدة للشاعر سميح القاسم ، تضج بالمقاومة والتحدى والتصميم :

رغم ليل الخنى وليل المظالم   حل وفد الكفاح ياكفر قاسم
رغم عسف الطاغوت يزبد سما   رغم سد الاسلاك فى الدرب جاثم
رغم حقد الرشاش يشهره الظلم   اتينا .. فليعلق الخزى حاكم

وفى داخل اسرائيل العصرية ، وفى مواجهة كل أنواع الاضطهاد وأبشعها ، يشجب شعر المقاومة الظلم الصهيونى ، ويصرخ بالتحدى والاصرار بلا يأس ولانواح ولا شكوى، فالواقع المظلم البائس لايدفع الى اليأس وانما الى الثورة العارمة والى الكفاح العنيد والى الامل بالمستقبل العربى المشرق . ومن هنا تبرز ملحوظة هامة يقررها المؤلف وهى انه « فى تعداد الظواهر المميزة لشعر المقاومة العربى فى الارض المحتلة ، ظاهرة هامة

تلاحظ بوضوح كلى : هى ظاهرة يسارية شعر المقاومة هذا .» (ص ٤٦) ولم يقدم دليله على هذا الحكم الخطير ، ففى حدود النصوص الواردة فى كتابه ، يعد شعر المقاومة ، شعرا وطنيا ، شعرا قوميا ، شعر مقاومة . ولا تتمثل فيه الا أية اتجاهات يسارية ، ولا أية مطالب يسارية . هو شعر موجه أساسا ضد قوى الاحتلال ، وضد العدوان الاجنبى على البلاد العربية . وقولنا هذا لاينفى صحة النقاط الثلاث التى ذكرها فى سبيل توضيح حياة عرب الارض المحتلة ، فهم حقا ينتسبون الى الريف ، الذى وقع عليه أكبر أعباء نكبة فلسطين . وهم يتعرضون لمحاربة يومية فى أرزاقهم . كما تعد الانظمة الرأسمالية الاب الشرعى للحكم العدوانى الاسرائيلى .

واذ يحاول الفكر الصهيونى والدعاية الصهيونية محو الثقافة العربية داخل فلسطين المحتلة ، وطى العرب داخل الاحزاب الصهيونية والاجهزة الصهيونية مهما تعارضت فيما بينها ولكن من خلال الاطار الصهيونى . يقف أدب المقاومة كالمارد ضد كل هذه المحاولات ، واضعا أمام الجماهير الانموذج الرائع للبطل العربى والمستقبل العربى والامل العربى ، محطما التشويه المتعمد الذى يقدمه الادب الصهيونى لصورة البطل العربى . وفى ختام الفصل الاول ـ الذى ركزنا عليه كل اهتماماتنا ، لانه فى نظرنا يقدم كل مايقوله المؤلف فى كتابه ، وهو أمس الفصول صلة بموضوع الكتاب ـ يشيد المؤلف بأدب المقاومة العربى برغم كل ظروف القسر والارهاب العنصرى التى يعيشها اخوتنا العرب فى فلسطين ، بشكل يفوق مايحدث فى جنوب افريقيا وروديسيا. ويلخص موقف أدب المقاومة الفلسطينية فى كلمات : انه ساخر فى مواجهة محاولات سحق الشخصية العربية ، ومتحد لكل الاوضاع الظالمة ، ثم هو مهاجم عندما تحين ساعة الالتحام . وانه فى خلال ذلك كله ، أدب مهاجم مؤمن بالنصر ، وبانه حلقة من حلقات الثورة العربية ، ملتحم بانجازاتها التقدمية رغم كل الفواصل والحواجز الارهابية . وانه يرد بقوة على مزاعم الادب الصهيونى ومحاولة تحطيم الشخصية العربية بتقديم صورة الاديب المناضل المقاوم المتحدى . ومن ثم يقودنا المؤلف الى الفصل الثانى من كتابه المخصص للحديث عن الادب المقابل لادب المقاومة ، الادب الصهيونى ، وبالتحديد « البطل العربى فى الرواية الصهيونية » .

ان الادب الصهيونى هو المتصدى لادب المقاومة العربى بهدف سحقه وتشويهه فى الداخل والخارج ، وتكوين رصيد دعائى ضخم لصالح الشخصية الصهيونية ، وقد تمكن بالفعل من حصر أدب المقاومة العربى فى الداخل ، وحجبه عن العالم الخارجى . والصبغة الغالبة على الادب الصهيونى قديمه وحديثه وحديثه انه يمزج العنصر والدين فى كل واحد . ويناقش المؤلف رأى فرويد فى كتابه « موسى والتوحيد » الذى يؤكد فيه امتزاج الدين والعنصر معا فى اليهودية ، وان الشعور الفوقى لدى اليهود بالتفوق العنصرى ليس ناتجا عن الاضطهاد الذى لاقوه وانما هو صادر عن اقتناع تام بالتفوق الطبيعى ، ثم يذكر رسالة أخرى من فرويد الى صديق له يهودى ينصحه بأن يربى فى ابنه نزعة الاضطهاد ويضعه فى أماكن غير يهودية ، حتى يناضل كيهودى . فيقول غسان كنفانى : « ان هذا الكلام يعنى أن الفاعلية وان المزية النضالية اليهودية ، والخصوصية اليهودية هى أمور لا تتولد تلقائيا عن شعور وراثى بأن اليهود هم شعب الله المختار فقط ولكن عن ممارسة يومية طابعها الرئيسى ، كما توحى رسالة فرويد نفسه ، التضاد والصراع وربما الاضطهاد والاحتقار ، ولكن ليس عن شعور ميتافيريكى غيبى بالابوة والاصالة » . (ص ٥٦ و ٥٧) .

ان الروايات الصهيونية القديمة التى كتبها هرتزل وجورج اليوت تؤكد تفوق اليهود كشعب الله المختار لقيادة الشعوب الاخرى ولخيرها . وهنا يواجه أدب المقاومة العربى هذه الادعاءات ، ولكن كيف يواجهها ، وأين النصوص التى يواجهها بها ، هذا مالم يقبله المؤلف ، ان المؤلف مطالب هنا بأن يبرر أحكامه القائمة على غير دليل ، والمبنية على البتر والحسم . ويستطرد المؤلف الى مناقشة كتاب س.د. غواتين الاستاذ الصهيونى « اليهود والعرب ـ علاقاتهم عبر الاجيال » الذى يخلص فيه الى أن اليهود متفوقون على العرب لاسباب عنصرية ، ولمميزات تجرى فى دماء اليهود ، وحرم منها العرب . وهذا القول وحده يهدم اى بحث علمى ، فهو مجرد افتراض غيبى . وعلى هذا النمط يسير الادب الصهيونى والدعاية الصهيونية . وقد وجه التبرير الادبى للصهيونية

فى احتقار الشعوب الى أسباغ البطولات الزائفة على اليهود ، واحتقار الشعوب عامة والشعب العربى خاصة ، الذى واجه هذه العقلية المنحرفة المريضة . وهنا يقدم أدب المقاومة العربى تلقائيا الصورة المقابلة والمتحدية لهذه الخرافات ، الانموذج الذى حاولت الصهيونية قبره . ولكن ماهو هذا الانموذج ، ومانوع التصدى ؟ لا اجابة من المؤلف ولاتوضيح ، وانما هى سطور تزج فى حماسة وسط بحث علمى .

الادب الصهيونى يرتكز على محورين وينطلق منهما ، احتقار كل ماهو غير صهيونى واسباغ البطولة على الصهيونى ، ويقدم المؤلف عرضا سريعا لبعض النماذج من الروايات الصهيونية عبر القرون السابقة ، وكيف انقلبت اسطورة اليهودى التائه من تجريم اليهود بصلب المسيح ، الى رمز لتفوق اليهودى ، الذى ازداد علما ومعرفة عبر تجواله حتى تحولت شخصية اليهودى « من شخصية مستغفر الى شخصية ثائر » (ص ٦٣) فى مطلع القرن التاسع عشر ، وما ان انتصف ذلك القرن حتى تحولت الشخصية اليهودية فى الرواية الصهيونية من متهمة الى موجهة للاتهام . والى تصوير شخصية اليهودى فى صورة البطل الوحيد الصالح لقيادة العالم . ولكن قيام كارثة فلسطين ومواجهة العرب وجها لوجه ، حمل الاهتزاز الى صورة البطل الصهيونى . وهى نتيجة متناقضة بالقطع مع الفقرة التالية التى يؤكد فيها المؤلف « ان الروايات الصهيونية التى كتبت بعد ١٩٤٨ تميزت بالميزتين اللتين تحدثنا عنهما قبيل قليل : الاصرار على بطل يهودى معصوم ومتفوق والاصرار فى الوقت ذاته ، وتوضيحا للصورة ، على احتقار الجانب الآخر ، أى العرب » (ص ٦٥) هو تناقض ظاهر فكيف يتفق اهتزاز صورة البطل الصهيونى بعد النكبة مع اغراق الرواية الصهيونية فى التركيز على بطولته . ومرجع هذا التناقض فى رأينا انه مجرد اساءة للتعبير فاختلط المعنى ، وخاصية أخرى : ان البطل الصهيونى فى الرواية الصهيونية لابد وأن يكون فارا من جحيم النازية الى الارض المقدسة ، وهو فى فراره يترك وراءه ـ على سبيل الاثارة ـ جثثا متراصة من الاخوة والآباء والاقارب فى المانيا ، ويحتضن فى قلبه عبارات من التوراة يظل يرددها طوال الرواية ، وهى كلها بالطبع أساليب دعائية تفسد أى عمل فنى ، وتحمل اليه الانهيار فى التكنيك . وفى مقابل صورة البطل الصهيونى التى تقدمها الرواية الصهيونية بمزيد من التعظيم والبطولة ، تعمد الرواية الصهيونية الى تشويه صورة العربى ، فهو فى نظرها اما جبان يهرب عند أول صدام أو قتال ، واذا قاتل فليس فى سبيل مثل عليا وانما فى سبيل النهب ، وهو أمى جاهل فى الغالب ، واذا أغارت الطائرات العربية فهى لاتقتل سوى الاطفال والنساء . ثم تغرق الروايات الصهيونية فى سيل من السباب والهجوم القذر . وعن طريق افتعال قصص الحب بين اليهود ، تدور مناقشات بين الولد اليهودى والبنت اليهودية تنتهى طبعا بالاقتناع بالفكرة الصهيونية . ثم يصور العربى بلا حق وبلا قضية وانه مجرد مخرب لارض فلسطين . ومن ثم تحتقر الرواية الصهيونية الشعب العربى والشعوب الاخرى بدرجات متفاوتة ، وتختتم الرواية الصهيونية دائما بتمجيد عنصرى لليهود شعب الله المختار والممتاز والمعصوم من الخطأ . وتمثل هذه الكتابات العنصرية ، المجافية لاى علم وأى أدب وأى منطق ، انهيارا أدبيا على الصعيد الفنى ، وانهيارا خلقيا كذلك ، بخضوعها لمتطلبات الدعاية الصهيونية العنصرية . أما الروايات التى تصدر عن يهود عاشوا فى فلسطين قبل النكبة وامتزجوا بالعرب ، فهى فى نظر المؤلف أقل خضوعا للدعاية الصهيونية ، لماذا ؟! لانها لاتضع ختاما للقصة اليهودية ، وتدع الاحداث عند خط لاينتهى ، أو انها تنتهى بقتل العربى خطأ . اذن فالعربى مقتول مقتول فى الرواية الصهيونية على اختلاف كتابها ، وهى رواية دعائية تغالط فى الحقائق ، وتنكر قضية العرب ، وتشوه صورة العربى ، وتمجد الصهيونى بصورة عنصرية . وفى مقابلها يرتفع صوت الشاعر العربى الفلسطينى قويا عظيما واثقا بلا تردد فى النصر العربى وفى الامل العربى وفى المستقبل العربى الزاهر .

ومن هذا المنطلق الحق ، يخصص المؤلف ثالث فصول الكتاب وأكبرها حجما ، وأهمها على الاطلاق . لانه كما قلنا من قبل فى صدر هذه الدراسة ، يقدم النصوص التى ستظل تعيننا كمرجع هام على الصعيد السياسى والادبى والعلمى ، لمعرفة موقع أقدامنا العربية داخل أرض فلسطين المحتلة ، وهى خطوة عظيمة لخدمة قضية تحرير فلسطين ، وصورة باسلة للوجه العربى البطولى داخل بؤرة الحقد الصهيونى . والنصوص الشعرية التى يقدمها الفصل الثالث من الكتاب ، تحتاج الى دراسة منفصلة

مستقلة عن هذا المقال ، الذى يضيق عنها آسفا تبعا لمقتضى المجال ، ولكننا لنكتفى بعرض مقتطفات من شعر المقاومة الفلسطينية من الوجه المشرق العظيم لادبنا العربى عموما .



يقدم هذا الفصل قصائد للشعراء توفيق زيادة من الناصرة ، محمود درويش من البردة ، سميح القاسم من الرامة ، سالم جبران (لم يذكر بلدته) ، القروى ، ونايف سليمان .

للشاعر توفيق زياد الذى صدرنا هـذا المقال بأبيات من قصيدته « المستحيل » قصيدة أخرى بعنوان « على جذع زيتونة » يؤمن فيها بالنصر رغم ظلام النكبة ، ويضرب المثل بالذين حاكوا بالصوف أسماء أعداء الشعب الفرنسى لتنتقم منهم ثورته المظفرة بعد اتمام انتصارها . ولكن لان الشاعر لايحوك الصوف ولايمتلك ثمن الورق ولا الامان فى داره من هجمات البوليس الصهيونى ، فهو يحفر كل مايريد على جذع زيتونة الى أن يتم النصر ويجيء يوم الحساب .

سأحفر قصتى وفصول مأساتى

وآهاتى على بيارتى ، وقبور أمواتى

وأحفر كل مر ذقته

يمحوه عثر حلاوة الآتى !

سأحفر رقم كل قسيمة

من أرضنا سلبت

وموقع قريتى وحدودها

وبيوت أهلها التى نسفت

فبرغم كل الطغيـان والارهاب الذى يلاقيه الشاعر ، فهـو يؤمن ايمـانا جازما بالنصر ، « بحلاوة الآتى » ، وهو يرى قمة المأساة ولكنه وصلها فليس بعدها الا النصر هنا الاصرار والايمان بمستقبل الثورة العربية والمجـد العربى اللذين سيكتسحان كل الطغيان الصهيونى ، فالشاعر يستمد من الظلم والطغيان والسجن والتعذيب أمـلا وقوة للتحدى ، وفى قصيدة «نيران المجوس» لنفس الشاعر ، يشتد الامل والعمل الدائب من أجله ، فهو يحوك الأمل من الالم ويرى النور فى الظلام :

على مهلى

أشد الضوء خيطا ريقا

من ظلمة الليل

على مهلى

لان وظيفة التاريخ

أن يمشى كما نملى ..

طغاة الارض حضرنا نهايتهم

سنجزيهم بما أبقوا

نطيل حبالهم ، لا كى نطيل حياتهم .

لكن لتكفيهم

لينشنقوا !

هذا هو اليقين الكامل والاصرار العظيم على تحدى الظلم والعمل من أجل المستقبل هو كالنمل دءوب لا يكل فى صنع الأمل والحيـاة المقبلة ، وهو يحترق كله وببطء من أجل عودة الارض الى أهلها ، ويؤمن بأن التاريخ والمستقبل فى صـالح الشعب الفلسطينى وقضيته العادلة .

وللشاعر محمود درويش ثلاث قصائد حب :

١ ـ « المناديل »
٢ ـ « قصائد عن حب قديم »
٣ ـ « عاشق من فلسطين » .

والحب عند الشاعر يرتبط بمأساة فلسطين ، حتى مناديل الحب تضمد جراح بلاده ، وتشد الحبيبة أزر الشاعر وتعيده الى أصله وأهله ، اللذين ضاعا منه ككل شيء ضاع من الفلسطيني حتى أصله : كلمة فلسطيني محرمة ، لذا فالشاعر ينطق هذه الكلمة المحرمة للحبيبة ، الشخص والوطن ، فى قصيدته الطويلة « عاشق من فلسطين » :

سأكتب جملة أحلى من الشهداء والقبل :
« فلسطينية كانت .. ولم تزل » !

وفى مواجهة العنصرية والدعاية والديماجوجية ، الصهيونية العدوة يقف الشاعر بطلا صاعدا واثقا من قوته محطما للدعايات الصهيونية ومحتقرا لها :

وباسمك صحت بالاعداء :
كلى لحمى اذا مانمت ياديدان
فبيض النمل لايلد النسور
وبيضة الافعى
يخبىء قشرها ثعبان :
خيول الروم أعرفها
وأعرف قبلها انى :
أنا زين الشباب وفارس الفرسان !

وللشاعر سميح القاسم ست قصائد تسير على نفس الخط الصاعد لشعر المقاومة الفلسطينية :

١ ـ « الجواد الجامح » .
٢ ـ « بطاقة الى الجماهير » .
٣ ـ « كفر قاسم » .
٤ ـ « خطاب من سوق البطالة » .
٥ ـ « حوارية العار » .
٦ ـ « أختى صنعاء » .

غير أن القصيدة الاخيرة تضيف بعدا جديدا لشعر المقاومة الفلسطينية فى داخل الارض المحتلة ، هو التحامه بالثورة العربية ، التى تمده بانتصار جديد لا بد وأن يمتد اليه حتما . ماأروعه وهو يردد : « أختى ، أختى صنعاء ! » . أخته الثورة اليمنية .

لايعبر بالشباك مساء
الا وتطل من الافق العين الكحلاء
عين الحرة
بنت الثورة
أختى ، أختى صنعاء !
لايعبر الشباك صباح
الا تطل من الافق المعبود جراح
جرح فى صدر صعيدى أسمر
جرح فى صدر حديدى أسمر
وجراح فى صدر تعز السمراء
تسقى زنبقة الحرية
فى سفح الجبل الاحمر
وتسيل ربيعا فى عطش الصحراء
صحرائى العربية !

وهو يتطلع الى صنعاء عاصمة الثورة اليمنية والى مساندة الجندى الصعيدى لاخيه فى الحديدة ، وتروى دماؤهم السائلة شجرة الحرية وتدفع الربيع والخضرة فى الصحراء ، صحراء الشاعر ، فلسطين العربية . فهو يؤمن بتلاحم الثورات العربية

وانها خطوة فى سبيل تحرير فلسطين المحتلة . انظر الى تكرار كلمة « أومن » فى مؤخرة القصيدة ، والى الحب العظيم الذى يمنحه الشاعر لليمن : « يمنه المعبـــود » ، برغم كل الاذاعات العميلة والاخبار الكاذبة :



أومن ، أومن ، أومن
يمنى ، يمنى المعبود
سيعود سعيد
فكهوف الشاى الاسود والقهوة والقات
صارت ثكنات
ورجالى من أسيوط وبور سعيد
كثر كثر
والنصر أكيد !

وماأكثر مايكتب عن شعر المقاومة فى فلسطين المحتلة ، ولكنه كما سبق لنا قوله يحتاج الى دراسة مستقلة ، ويحتاج من قرائنا وكتابنا وفنانينا أن يولوا هذه النصوص الشعرية التى يضمها كتاب الاستاذ غسان كنفانى ، كل حبهم واهتمامهم .

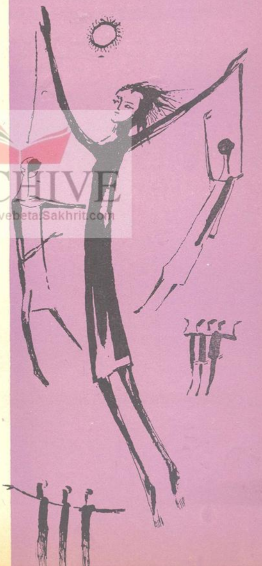
ومع اشادتنا بأهمية هذا الكتاب كعمل رائد عظيم . لايفوتنا أن ندرج فى النهاية أن الكتاب مع استنكاره للبحث العلمى وفقده لهذه الصفة لتغلب الحماسة على الدراسة – ومن ذا الذى لايشتعل حماسة لدى مطالعته لهذه الثورة الشعرية العارمة – كان يجب أن يخصص فصلا كبيرا لدراسة شاملة للادب الفلسطينى قبل النكبة واثناءها ، لمعرفة الخلفية التى صدر عنها أدب المقاومة وهى زاوية أساسية فى اى بحث أدبى . كما أن الكاتب لم يذكر من قريب أو بعيد أى مراجع ومن أين استقى مصادر بحثه وخاصة الاحصائيات الرسمية . نقول هذا مع حرصنا معه على سرية هذه المصادر ان كانت شخصية ولكنه حتى عندما تحدث عن روايات صهيونية مطبوعة قبل النكبة أو بعدها فى خارج اسرائيل ، اكتفى بذكر رقم الصفحات ، دون تدوين البيانات الكاملة الخاصة بالمراجع بل ان بحثه فى الرواية الصهيونية جرى تحت باب اهميته كأدب مقابل لادب المقـاومة العربية ، ولكن معظم الفصل استغرق أعمالا روائية كتبت قبل النكبة بقرون ، وليس للعرب أى وجود فيها طبعـا ، لذا يحتل بحث البطل العربى فى الرواية الصـهيونية قسما ضئيلا من الفصل المخصص له . وفى صدد بحثه فى الرواية الصهيونية كان يجب على الكاتب أن يبحث لماذا يسيطر الادب اليهودى على الادب والفكر الامريكى المعاصر . كما انه كان يجب عليه كفلسطينى وخبير بأدب المقاومة الفلسطينية داخل الارض المحتلة، ان يخصص فصلا ختاميا ، لوسـائل تعزيز أدب المقاومة ونشره على العـالم ، كواجب أساسى نلتزم به ازاء هذا النضال الفلسطينى الجبار . ولتحطيم الدعاية الصهيونيه والادب الصهيونى على الصعيد العالمى . هـــذا كله بالاضافة الى ملاحظتنا التى بيناها فى مستهل حديثنا عن الكتاب ، وهو أنه عن « شعر المقاومة فى فلسطين المحتلة » لا عن أدب المقاومة .

ان شعر المقاومة داخل فلسطين المحتلة ، يمدنا بنـاره المتأججة ، لتظل قلوبنا مشتعلة حماسا للعمل من أجل استرداد فلسطين ، وبأن الثورة العربية هى الطـريق العظيم المجيد لتحرير الوطن السـليب .

أحمد محمد عطيه

إنسانيات

أومن



٢٤٨ صفحة

دار مطابع الشعب

نشر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

تأليف : عبد المنعم خلاف

عرض ونقد : أحمد الشرباصي

بالإنسان

« تلك روحية مادية حديثة ، ينبغي أن تكون من مظاهر التدين فى هـــذه العصور التى تسير فيها المدنية المادية بحياة الانسان فيساعة واحدة أضعاف ماكانت تسير به مدنيات العصور السالفة فى عشرات السنين .

نعم ان أصول الدين الحق واحدة ثابتة لاتتغير، ولكن ينبغى ألا نكون جامدين متحجرين فى طرق العبادات ، فنفهم أنعباداتنا مقصورة على الاشكال الموروثة ، بل يجب أن تكون انتقالات العلوم بنا سببا فى أن نعبد الله بها ، وأن يزيد فكرنا فيه من أجلها ، وتلك عبادة مطلقة من قيود الطقوس والرسوم والاشكال ... عبادة يستطيع أن يقوم بها من يسير بسرعة آلاف الاميال فى الساعة ، ويرتفع الى طبقات الفضاء العليا ، وينخفض الى أعماق البحار السفلى ، ويتنفس فى أقصى الشرق فتسمع أنفاسه فى أقصى الغرب ... ذلك الذى يستطيع أن يترك فى كل مكان كلمة تشهد بالله، وتنطق بها الاحجار والاشجار والماء والهواء .

فهنـــالك ، بين العـالم المـادى والاستغراق الروحى ، يجب أن يقف الانسان الحديث، يناجى الله وفى قبضة يده مفـــاتيح أسرار المـــادة ونواميسها ، وفى قلبه صلاة دائمة جامعة » .

هذه عبارة وردت فى مطالع الربع الاخير من كتاب « أومن بالانسان » ، وهى تصوير وتركيز للهدف الذى يسعى نحوه صاحبه ، ويحاول أن يدل عليه وأن يدعو اليه بشتى ألوان التصوير ومختلف أنواع التعبير .

وكتاب « أومن بالانسان » من تأليف الاستاذ عبد المنعم محمد خلاف المستشار بجامعة الدول العربية ، وقد ألفه وأظهره للمرة الاولى فى سنة ١٩٤٥ م ، ثم أعيد طبعه فى سنة ١٩٦٥ ، وتولى نشره هذه المرة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، وقد صدر المؤلف كتابه بكلمة للعالم الفيلسوف المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق جاء فيها أن المؤلف يجمع بين العقل والدين، على أن فى الناس من لا يعقلون ولا يتدينون ، وفيهم من يتدينون ولا يعقلون ، مما دعا أبا العلاء المعرى منذ القدم الى أن يقول :

اثنان أهل الارض ، ذو عقل بلا
دين ، وآخـر دين لا عقـــل له

ومنذ عبارة الاهداء التى افتتح بهـــا المؤلف كتابه تحس بأنه ذو نزعة انسانية متجردة عن الطائفية والعصبية ، ولذلك يقول فى اهدائه : « الى الأبطال الثلاثة : التوراة والانجيل والقرآن الذين ثبتوا يكافحـون فى الدهر الأطول قـوى الظلام والطغيان والهوان ، نضالا عن كرامة روح الانسان » .

والكتاب يظهر فيه الحاح التعبير فى تصوير الفكرة ، مع حماسة القلب الشاب ، وتوقد الذهن المشبوب ، وحرارة المؤمن الغيور ، وقد يصحب هذا اتكاء على الاسهاب أو الاطناب أو الاستعانة بالمترادفات ، ولعل مبعث هذا هو أن الكتاب يدعو الى قضية تحتاج الى الكثير من الأنصار ·

انها قضية الايمان بالانسان ، قضية اعادة الثقة الى أفراد هذا النوع البشرى المستخلف من الله تعالى فى الأرض ذات الطول والعرض ، حتى يوقنوا بأن نوعهم هو النوع الأسمى بين أنواع الأحياء ، وأن معدنهم هو أصفى المعادن فى هذه الأرجاء ، اذا صاحبهم التوفيق فكشفوا عنه ماعلاه من صدأ الغفلة أو الجهالة أو الانحراف ·

والكتاب قائم فى جوهره وأكثره على قضية فكرية ودينية هى أن الايمان بالانسان سابق على غيره من قضايا الدين والفكر ، لان الفرد الانسانى لن يؤمن بالكون ورب الكون ان لم يؤمن بنوعه ، اذ اننا لا ندرك الكون وربه الا بعقل النوع الانسانى ، فاذا أهدرنا قيمة الانسان أهدرنا عقله ، فلا يبقى لنا ما ندرك به الكون ورب الكون ·

والمؤلف بكتابه هذا يبدأ محاولة يقصد من ورائها تمهيدا فكريا ووجدانيا لقيام الحضارة الروحية المادية التى هى أمل الانسانية كلها ، وهو فى دعوته وفكرته لا يحذو حذو الروحيين المغرقين فى الروحية المهملين للجانب المادى ، ولا يحذو حذو الماديين المستغرقين فى حياة المادة مع عدم الاعتراف بما وراءها ، بل اتخذ الموقف المعقول بين بين ، وهو يرى أن نتذرع فى محاولة البلوغ الى مقصده بطائفة من الوسائل ، هى :

أولا : نظرة جديدة للكون من خلال نظرة جديدة الى الانسان ترفع مكانته لدى نفسه ، وتنمى ثقته وايمانه بنوعه ، وادراكه أسرار خلقه وفكره وجهده وتنوعه شعوبا وألوانا ·

ثانيا : ربط روحه بمصدرها الالهى ربطا وثيقا على هدى من العلم والدين ·

ثالثا : وصل عقله بأعماق الطبيعة وأسرار الحياة ، حتى يشعر بالانسجام مع الكون كله ·

رابعا : عقد صداقة وثيقة بين ضميره والمعانى العليا للحياة ، وهى: الايمان ، والحق ، والجمال ، والقوة ، والحب ، والخير ، بعد ما أصابه من هذيان الفلسفات المادية الجامحة ، وشوشرة المذاهب الهدامة التى كان من نتائجها طوفان الدم والوحل الذى طم على الانسانية كلها فى الحرب العالمية الثانية ، ويوشك أن يقضى عليها فى حرب ثالثة اذا لم تتداركها العناية الالهية ·

خامسا : ملء قلب الانسان بنفحات التفاؤل الرحب ، والصبر الجميل ، والاستعلاء الأبى على أسباب التشاؤم والألم والسخط والانتقاض ·

سادسا : حمل جهده على عزائم الكفاح والسيطرة على القوى المادية العمياء ، لتسخيرها وتثميرها للنفع العام ·

سابعا : انهاض أسرة الامم الاسلامية حتى تؤدى نصيبها فى الحضارة المنشودة ، على قدم المساواة مع أسرة الامم المسيحية والاسرة اليهودية ·

وكأنى بالمؤلف قد استعظم الدعوة الى هذه الفكرة الجميلة الخلابة فى عالمه الصاخب اللاغب، الذى يعيش فيه ، واستبعد أن يصغى اليه من يود اصغاءهم اليه ، ولذلك أخذ يسوغ دعوته بأنه ينتسب الى قوم أصحاب أفكار انسانية أودعهم الله سرها ، وأن بذور الافكار كبذور النبات ، تلقى احداها فى ظلام الارض فلا تلبث أن تتخذ طريقها الى الحياة ، أو تتخذ الحياة طريقها اليها ، وأكثر « واقعيات الحياة » أصلها أفكار وأحلام · ولنفرض ان هذه الفكرة لاتتحقق، ولا يستمع اليها ، فهى على الأقل من الاحلام الجميلة التى يلذ الحديث عنها ، ويجب التنويه بها كمثل أعلى تتمناه الانسانية · وسر عبقريات القلوب الكبيرة انها لم تعترف بالواقع السيىء فى زمنها ، بل ظلت تهز ضمير البشرية حتى أيقظته من سباته ، وهدته الى سواء السبيل ·

وحق للمؤلف – بل وجب عليه – أن يعبر عن فكرته بأنها حلم جميل ، فى تحقيقه تحقيق لمثل أعلى ، لأنه يطلب من الانسانية أمورا ثلاثة ليس من السهل أبدا تحققها كما يريد المؤلف ، أو كما يحلم بتعبير أدق ، وهذه الامور الثلاثة هى :

أولا : ازالة الدعايات القومية الحادة، والنعرات الجنسية الضيقة التى توحى بالتفرق والشتات، وتورث التعصب والتحيز الممقوت ·

ثانيا : ايجاد لغة اضافية عالمية مشتركة لتكون لغة « المواطن العالمي » .

ثالثا : توزيع المواد الاقتصادية دون جشع أو اغتصاب أو احتكار أو استئثار أو استغلال .

***

والمؤلف عربي له في النضال من أجل القومية العربية سعيه المشكور ، وهو مسلم ، وله في توجيه الشبيبة المسلمة جهده المذكور ، وهو يؤمن بأن الاســـلام هو الكفيل باقرار قضية الايمان والثقة بالانسانية ، لأن كتابه « القرآن » رفع من شأنها ، ودان بتقـــديس حرماتهـــا والثقـــة بمستقبلها .

وعلى الرغم من هذا لم يدع المؤلف دعوته في كتابه باسم الاسلام ، حتى لا يحمل كلامه محمل التعصب أو التـــحيز الموروث ، لان كثيرين من أبناء البشرية متأثرون حتى الآن بدعايات كاذبة ضد الاســـلام ، ولان رجال الاديان الاخرى قد ينفرون من دعوته ، ولعـــل هذا هو الذى جعـــل المؤلف يؤثر الاستشهاد في مطلع كتـــابه بكلام لرجل كروزفلت حيث خطب في شهر يونية من عام ١٩٤٢ في يوم العلم والاحتفال بتصريح الامم المتحدة ، وفي هذا الخطاب اتجه الى الله بدعاء قال فيه :

الهنا ، يا مانح الحـرية ، اننـا نضع أفئدتنا وأرواحنا اليوم رهن قضية حرية الجنس البشرى كافة . امنحنا اللهم الايمـان والفهم ، لنحيا ، ونعتز بالذين يحـاربون من أجل الحـرية كما لو كانوا اخوة لنا . امنحنا اللهم التآخي في الأمل والاتحـاد ، لا في فترة الحـرب المريرة فحسب بل في الايام المقبلة أيضا ... » الخ

وان كان المؤلف لم يفته مع هـــذا أن يلاحظ التناقض بين ما تقوله أمريكة وما تفعله ، فأشار الى مناصرتها الصهيونية العنصرية الطـــاغية في فلسطين !.

واللافت للنـــظر أن المؤلف يبـــدو كالحـــائر المضطرب بين واقع الانســـان وما يرجوه لهذا الانسان من رجوع الى المثل العليا ، فهو في موطن يفزع لهول الحرب العالمية الثانية الفاجرة ، التى دارت طواحينها الحمر على جماجم البشر ، وذرت فيهـــا رياح النار مدنه وآثاره العامرة بالجمال والحرمات ، وأحالتها خرائب واطـــلالا تعمرها أشـــباح الهول ، وتتساقط عليها المصارع في صيحـــات وصعقات نكراء ترسلها أفواه وحوش الحـــديد والفولاذ الرابضة والسائرة والسابحة والطائرة ؛ ويقرر المؤلف أن جرائم هذه الحرب قد زلزلت دعائم عقيدته في النوع الانساني وأمله في مستقبله .

وهو في موطن ثان يشـــير الى المآسي التى ارتكبت خلال الحرب في «الفلاندر » و «أوكرانيا» و «الصحراء الغربية» ويعقب عليها بأن الانسان قد تحول الى قوى عمياء ، وصار عاتيا كالريح ، جارفا كالتيار ، أعمى كالصاعقة ، قاسيا كالحديد، صابرا كالفـولاذ ، فظيعا كالنـــار . ثم يتساءل المؤلف عن الانســـان فيما يشبه اليأس : متى يفيق الانسان لنفسه ؟ .

ولكنه في مواطن أخرى يعود فيتمنى أن يرجع الانسان الى صوابه ، ويسمو بنفسه ، ويتعرف الى رسالته في الحياة .

واذا كان المؤلف يرى أن الايمان بالانسان هو باب الايمان بالله ، فانه يرى الى جوار هذا أن هناك مرحلة فكرية تســـبق موقف الفيلسوف « ديكارت » حين أثبت وجود الذات المفـــكرة ، واتخذه أساسا بنى عليه فلسفته الاثباتية ، فمن أين لديكارت أن يثبت أن تلك الذات هي ميزان الافكار ، وأن لها في الكون قيمة واعتبارا ، ولما ينتج منها من الفكر قيمة واعتبارا ، ان لم يثبتهما أولا للنوع الذى تنتسب اليه هذه الذات ، ليكون لما يصدر عن أفراد ذلك النوع تلك القيمة وذلك الاعتبار ؟! .

ونجد المؤلف الذى يؤمن بالانسان ايمـــانا عميقا يصور ذلك الانســـان أحيانا كأنه صاحب « شخصية مزدوجة » ، فهو يتأرجح بين الخير والشر ، وبين الحـق والبـــاطل ، وبين الهدى والضلال ، فيقول : « هل رأيت في الحياة منذ دخولك اليها نوعا غير الانسان يقيم أسواقا للحياة مثل هذه الاسواق ؟ ثم هل رأيت نوعا آخر يعلو بالحيـــاة حتى يأتي في علوه بالعجب العجاب ، ويســـفل بهـا حتى يأتي في السفالة بالعجب العـــجاب ؟ .. وهل رأيت نوعا آخر يفتن في وسائل متاعه هذا الافتنان الذى تراه في السينما والمسرح ومخـــازن الملابس والفـــرش وأدوات الزينة » .

وعلى الرغم من أن المؤلف تعهد فى مطلع كتابه أن لا يدعو الى دعوته باسم الاسلام مباشرة ، بل يعرضها مسألة انسانية كما هى فى الطبيعة ، دون استعمال لألفاظ القرآن ، حتى يتأتى لغير المسلمين أن يشعروا بالعقائد الانسانية منقولة عن الطبيعة مباشرة ، وسيكون وحى الطبيعة مع هذا هو رأى الاسلام نفسه • على الرغم من هذا نرى المؤلف يغلبه ايمانه بالاسلام وعظمته فيقول:

« ثم كان الانقلاب الاسلامى قمة النضوج فى العقيدة الدينية ، اذ جعلها عقيدة طبيعية عقلية دولية ، وضعت فيها الاسس لوحدة البشر ، وتلاقيهم على المعانى المشتركة بينهم ، حتى يتأتى من وراء ذلك السعى الى وحدة العمل والخدمة المشتركة ، ولذلك لم تنتظر الارض أن يأتيها هدى من السماء على يد رسول بعد رسول الاسلام ، وأحست أن الله أغلق باب الوحى ، وجعل محمدا خاتم النبيين ، وقد صدق الزمان ذلك فلا مجال للجدال • فلم تعد الانسانية تقبل ظهور البطل فى صورة نبى ، وقد نبه الى ذلك كارليل فى كتابه (الابطال) •

ولعل هذا هو معنى قول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فىخطبة الوداع : (ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض) أى أن الانسانية قد بدأت بعد الانقلاب الاسلامى دورة زمنية جديدة •

وحقا يجد كل من يتفرس ويستقرىء التاريخ، ان عصرا عقليا جديدا قد ابتدأ بظهور الاسلام ، وانفساح الامبراطورية العربية التى احتضنت جميع علوم العالم القديم ومعارفه ، وأنمتها وحملتها الى العالم الحديث ، فالانقلاب الاسلامى ينبغى أن تجعله الانسانية كلها بدء تاريخ رشد للعقل ووحدة للدين فيه » •

وأتعجل الملاحظة على النص السابق فأشير الى أنه استعمل كلمة « انقلاب » بالنسبة الى دعوة الاسلام ، والاسلام لم يكن انقلابا ، بل كان اصلاحا وتجديدا للحياة الانسانية • وهذه الملاحظة تذكرنا بأخوات لها تتعلق بتوسع المؤلف فى بعض العبارات ، كأن يقول عن حرب الناس وجرائمها انها صارت « كحرب الآلهة » وهذا تعبير لا يأنس به المجتمع الاسلامى ولا المجتمع العربى• وكأن يقول ان العقيدة الدينية الآن أصح منها فى



الماضى ، مع أن كثيرين يقولون ان العقيدة الدينية تتعرض الآن لزلزال عنيف فى صدور كثيرين ممن غرتهم المادة فى الحياة ٠

وقد أطال المؤلف الحديث عن مظـاهر تقدم الانسان وتطوره، وتعددت وقفات المؤلف لتشقيق هـذا الحـديث ، ولكن أغلب ما ذكره كان عن الناحية المادية فى حياة الانسان ، كتفنن الانسان فى الاهتداء الى المسـكن والملبس وأدوات الحياة ومطالب الحياة ، حتى فى حديث المؤلف عن ولوع الانسان بالخلود ، بدا هذا الولوع منصرفا الى الناحية المـادية كالتحنيط والكتابة والتصوير وتسجيل الصوت ٠٠٠ الخ ٠

وللمؤلف غرام طاغ بالمترادفات أو النعـابير المتقاربة ، كقوله مثلا : « انه لا بد عالم نهـائى لا تدركه الأبصار والمناظير ، ولا تحلله المخابير ، ولا تسبر آفاقه المسابير والمعايير » ٠ أرأيت الى الكلمات المتوالية : المنـــاظير والمخابير والمسابير والمعايير ؟! ٠

وقد عجبت جدا حين رأيت المؤلف يقول عن الحرب العالمية الثانية : « وانى كلما رأيت تلك (التشكيلة) العجيبة التى حشدتها بريطانيا فى جيوشـــها بمصر من زنوج أفريقية وهنود آسيا وصفرها وبيضها ، ومن جنود اسكتلندا وأرلندا وكندا وجنـــوب أفريقية ، مضـــافا اليهم تلك التشكيلية الامريكية وسائر الاحلاف ٠٠٠ أشعر شعورا سارا متفائلا » ص ٦٣ ٠

لست أدرى كيف ثار هـــذا الشعور السار المتفائل فى نفوس المؤلف المصرى العربى المسلم الذى عرف من مآسى الاســـتعمار البريطـــانى ما عرف ؟ ٠٠ وكيـــف يسر لرؤية ما صنعته بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية من تسخيرها شـباب مسـتعمراتها لتحقيق أحلامها الحـربية وشهواتها الاستعمارية ؟! ٠

ليت المؤلف حذف هذه العبارة على الاقل من طبعة الكتاب الثانية ٠ ان فى صدرى كمـا فى صـــدر كل مصرى وكل عربى وكل مسلم وكل انسان منصف جمرات لاذعة لا تنطفىء أبدا كلما تذكرنا أفاعيـــل انجلترة فى مســتعمراتها وما حديث الحية البريطانية خـلال استعمارها لمصر وغيرها من بلاد العروبة والاسلام بمنسى أو ببعيد٠

***

والمؤلف نفسه قد صـــحح فى طبعة الكتاب الثانية بعض الآراء التى قررها فى الطبعة الاولى منه ، فهـــو قد عدل رأيه فى أمريكا ، فبعد أن أثنى على روحها ونزعتها الى الحرية فى الطبعة الاولى عاد يقول فى الطبعة الثانية تعليقا على ذلك ما نصه : « يلحظ القارىء أن ما كتب فى هذا الكتاب عن الولايات المتحدة الامريكية من حسن ظن بها كان بدافع مماساد حياتها قبل الاربعينات والخمسينات والستينات من هذا القرن ٠ أما فى هـــذه العقـود المذكورة فان شيطان الصهيونية وشيطان الاستعمار الجديد قد ظهر أنهما قد ارتدا بها الى نكسة فظيعة توشك أن تقضى على آمال الانسانية فيها ، اذا لم تتداركها بطولة كبطولة واشنطون أو لنكولن » ٠

ليت المؤلف قال شيئا كهذا عن بريطانية التى شاركت أمريكة جرم تمكين الصهيونية من أرض فلسطين ٠

ومـــا ألاحظه على المؤلـف أنه قال فى (ص ١٣٣) أن شعار : « يا منصور مت » شعار جاهلى قـــديم ، والواقع انه شعار اســـلامى استعمله المسلمون فى بعض الغزوات ، وقد جاء ذكره فى كتب السنة الصحاح ٠

لكن هـذه الملاحظات لا تغض أبدا من قيمـة الكتاب ، ولا من جهـد صاحبه الفاضل ، فهــو صيحة مخلصة من صيحات النضال فى ســـبيل الارتقاء بالانسانية الى مستوى من المثل العليا فى هذه الحياة ٠

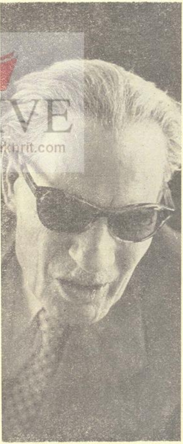
أحمد الشرباصى

« أصدق أمتى حياء عثمان »

ذو النورين

نصر

بين هيكل



صدق رسول الله ، ومن يصدق أن لم يصدق رسول الله ؟ لكن حياءه ظل يلازمه فى سيرته بعد أن ترك الحياة بخيرها وشرها ، فاذا سيرته تطالعنا بكبريات فضائله على استحياء .

تولى الخلافة فى وقت كانت الدولة الناشئة تحتاج فيه الى التأمين والتثبيت بعد دور أبى بكر فى تثبيت الخلافة فى الداخل ودور عمر فى التوسع والامتداد . فاستطاع أن يمد حدود الدولة الى مداها الطبيعى المأمون وأن يستكمل لها عدتها وعددها وموارد الانفاق عليها ، فما بارح الدنيا الا والدولة أقوى الدول برا وبحرا وحماسا وخبرة ومراسا ، ومكن لها بذلك من أن تكون لها هيبة مستقرة فى الأخلاد لا يجترىء



د . محمد حسين هيكل



عباس محمود العقاد

والعقاد وطه حسين

عرض ونقد أحمد ابراهيم الشريف

عليها أحد ، فاذا الفتنة تندلع وتنتشر وتخمد وتندثر ، والأعداء الذين كانوا خليقين أن يتربصوا بها الدوائر وينتهزوا الفرصة لايجرءون على المحاولة بله الاجتراء . وتلك هى الهيبة المستقرة التى لم تكن للدولة قبل ذاك .

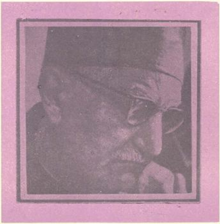
والعقيدة فى عهد عثمان كانت فى حاجة الى الكثير . كانت فى زمن النبى عليه الصلاة والسلام جهادا ودعوة ، حتى اذا دخل الناس فى دين الله أفواجا صارت مع الجهاد تشريعا واقامة للحدود والعلاقات . وفى عهد أبى بكر الصديق عليه الرضوان صارت العقيدة تصديقا واعادة للمرتدين الى السمع والطاعة والى حظيرة الدين القويم . وفى عهد الفاروق رضى الله عنه ، نشأ من المسلمين جيل لم يحظوا بالصحبة الكريمة ، ولكنهم كانوا بين آباء وأخوة واهل وذوين من صحابة الرسول الكريم ، كذلك نشأت طائفة أخرى من المسلمين لم يكونوا صحابة ولا أبناء صحابة ، ولكنهم كانوا من أبناء البلاد المفتوحة الذين يسمعون ويطيعون ويأخذون الدين عن أصحابه ورسله اليهم فيتبعون ولا يبتدعون . أما فى عهد عثمان فلم يبق من الصحابة أولى العلم الا القليل ، وطغى عدد من لم ير الرسول على عدد من رآه وسمع منه ، وأحس أبناء البلاد المفتوحة الذين آمنوا بأنهم قد صاروا من الدين ، وتولدت فى نفوسهم الثقة بأنهم عليه قوامون وأنهم واهل المدينة سواء ، فالكل يأخذ

عن بقية الصحابة ، ولا فضل لآخذ على آخذ الا بالعلم ، ولا لعربى على عجمى الا بالتقوى ، والعلم والتقوى ليســا حكرا لقريش ولا لأهل القريتين دون سائر الناس .

هنا ، والاختلاف فى الدين امر وشيك الوقوع أن لم تتداركه حكمة القائمين عليه بغير اسوة تؤتسى أو سنة يهتدى بهديها . فكان دور عثمان عليه الرضوان فى كتابة المصحف واحراق ماعداه، وهو عمل دونه مشــــقة بناء الأهرام وهــدم الحصون والآطام،ومن يرتب فى أهميته وصعوبته فما عليه الا أن يتدبر قصيدة من قصـــائد الجاهليين وما جرى عليها من الخــلاف ، ثم لينظر كم يبلغ الفارق فى الحماسة والعنف بين خلاف حول بيت من الشعر وخلاف حول ركائز الدين ومثابة الايمان ومناط النجاة فى الحياة وبعد الممات ، يجد مقدار أهمية هــذا العمل الجبار ، ثم ليتدبر مدى ما يعانيه المحققون فى تصحيح قصيدة واحدة او تصحيح نسبتها الى قائلها أو تضمينها بيتا ليس منها أو اسقاط بيت هو منها فى الصميم ، ثم ليعلم أن المخطىء فى التحقيق الأدبى ليس عليه من حرج فى الدين، وأن المخطىء فى نسبة قول الى الرسول لم يكن قاله معرض لأن يتبوأ مقعده من النار ، وأن المخطىء فى القــرآن أولى بالــنار من المخطىء فى الحديث ، ثم ليذكر قول زيد بن ثابت رضى الله عنه أن جبل أحد لو ارتد عليه لكان أخف عليه وقعا من جمع القرآن ، فسيعلم عندئذ مــدى مشقة العمل وصعوبته .

لولا ما فعله عثمان فى جمع القرآن لصــار الاسلام خلافا لا اتفاق فيه ، لأنه سيكون خلافا على الأصل لا على التفسير أو التأويل . فتلك مأثرة عثمانيــة دونها مآثر كثيرة لــكثيرين . فاعجب لشيخ يتولى أمر المسلمين فيمد الدولة الى أقصى حدودها ، ويستكمل لها عدتها من الرجال والسلاح والمال ، ويقر لها فى نفوس أعدائها المتاخمين هيبة لا تطمعهم فيها حتى وهى فريسة الفتنة الطخياء ، ويقطع دابر فتنة أشد وأعتى من فتنة الخــلافة ومن فتنة المرتدين ، لأن فتنة الخلاف على القرآن كانت خليقة أن تفتح باب الارتداد عن الدين باسم المحافظة على الدين ، ولا تقتصر على جيل دون ما يليه من الأجيال ، ثم اعجب لهذا الشيخ الحيى الكبير كيف لا تطالعنا من سيرته هذه الصفحات الا متوارية على استحياء فى خلال الكلام عن البيعة وما حدث فيها من اطماع ، وعن تفضيل الأقرباء وما صــحبه من تذمر وارتيــاع ، وعن مقتل الشيخ وماجر اليه من فتنة تصطك لها القلوب قبل الأسماع .. حياء لازم سيرة الرجل يذكرنا بحيائه يوم اجاب من راح يجرحه بعدم شهوده بدرا وبفراره يوم أحد وبعدم بيعته النبى يوم بيعة الرضوان ، فقال انه لم يشهد بدرا باذن النبى وأمره ليمرض زوجته بنت النبى ، وأن فراره قد غفر له فى محكم التنزيل ، وأن النبى قد ناب عنه فى البيعة بيده الكريمة حيث كان فى سفارة للنبى لدى قريش فى مكة ، واكتفى بهذا الاحتجاج ولم يذكر سابقته الى الدين ولا تجهيزه لجيش المسلمين فى بعض الغزوات ولا هجرتيه ولا زواجه من بنتى رسول‌الله ولا رضاء الرسول عنه وبشارته له بالجنة ولا غير ذلك من صفحات الحسنات ، فكأن الرجل قد كتب عليه فى حياته وبعد موته أن تتوارى فضــائله تحت حجاب مما يظن أنه مآخذ ســيئة عليه ولو كانت له فيها حجة ناهضة ودفاع صحيح .

لكأنى بفضــائل عثمــان تحتاج الى كتاب ينصرف اليها ولا يشير من قريب ولا بعيد الى مآخذه كى تظهر هذه الفضائل بريئة من أوضار



الاتهام والدفاع .. ولكن الرجل كان حييا فى حياته لا يذكر فضله ولا يطنب فيه ، فجاءت سيرته كما كانت حياته : حياء فيه ظلم عليه كبير .

□□□

تناول سيرة الخليفة الثالث كثيرون ، من بينهم هذا النفر الثلاثة من أدباء النصف الأول من القرن العشرين : الدكتور محمد حسين هيكل والأستاذ عباس محمود العقاد والدكتور طه حسين ، وهم الذين نتناول كتبهم عن عثمان فى هذا المقال .

ولم يكن اختيارنا لهم واقتصارنا عليهم اعتباطا ولا عصبية ولا نكرانا لفضل غيرهم ، ولكننا نختارهم ممثلين لثلاثة اتجاهات فى التأليف الحديث وفن التراجم والسير ، أسير فنون التأليف فى الوقت الحاضر . ذلك أن ثلاثتهم يكادون يختلفون فى كل شىء ولا يتفقون الا فى شىء واحد تقريبا ، ليس هو من قبيل الاتفاق المراد المقصود ، بل من قبيل الاتفاق فى الميلاد والبيئة الثقافية الواحدة .

ذلك الوجه للاتفاق هو التفاتهم الى هذه الفترة من تاريخ صدر الاسلام ينفضون عنها غبار النسيان ويجلون مرآتها لعيون الناشئة من المثقفين ويؤرخون لأحداثها ويترجمون لرجالها



محمد حسين هيكل

بما يفهمه المثقف الحديث . فهم بذلك ظاهرة أدبية ، وليس قصاراهم أنهم أدباء اتفقوا فى بعض الميول والاتجاهات والأهواء .

كان التاريخ والترجمة يمضيان قبلهم على السنة القديمة ، فالتاريخ تسجيل للأحداث والأيام، والترجمة ذكر للفضائل والمدائح أو ذكر للمثالب والمآخذ والتجريح .

فلما تعرف العرب على الثقافة الأوربية الحديثة ، وتفتحت عيونهم على مناهجها ومذاهبها ، راحوا ينقلون ثمار هذه الثقافة المستفادة الى قرائهم . وكان طبيعيا أن يقتدوا بالأوربيين فى المنهج وفى الموضوع المختار ، فألفوا عن عظماء الانسانية عامة وعن عظماء أقوامهم من امثال ما تزينى وبسمارك ونابليون ودزرائيلى. ولكنهم لم يلبثوا الا قليلا حتى تبينوا أن رسالتهم ليست اثبات كفاءتهم وانهم يضارعون الأوربيين فى الكتابة عن الشخصيات الأوربية ، بل رسالتهم الحقة هى أن يقولوا للعالم ولمواطنيهم ان لدينا عظماء شرقيين بكل مقاييس العظمة الانسانية والقومية ، وان تحت أطمار تاريخنا الطويل شهبا لامعة لا تحتاج الا الى ازاحة التراب عنها وعرضها بالأسلوب الحديث . فاندلعت وتأججت نار منيرة فى تأليف السير لعظمائنا العرب والشرقيين الذين جهلهم أو تجاهلهم الغربيون .

وكان من الطبيعى أيضا أن يستأثر صدر الاسلام بنصيب موفور فى هذا الميدان الجديد ، أولا لكثرة عظمائه عددا ، وثانيا لتنوعهم قيمة ، وثالثا لارتباط التأليف عنهم بحركة تجديد العقيدة وتنظيفها من أوضار الخرافات والترهات التى علقت بها فى عصور الجهالة والظلمات ، وخاصة أننا نعيش فى عصر الأيديولوجيات ، وأن الدين ينبغى أن يسهم بسهم كبير فى هذا الميدان لدى المسلمين .
الى هنا والنفر الثلاثة متفقون ، ولكنه اتفاق الظاهرة الطبيعية فى مفرداتها وجزئياتها ، لا اتفاق القصد المراد الذى يكون فى حركة رهط مجتمعين متحزبين ، ولا اتفاق الميول والأهواء التى يتصادف اتفاقها بين بعض الأدباء . ثم هم

بعد ذلك يختلفون .. ومن الخير العميم أنهم يختلفون .

□□□

اختلفوا أول الأمر فى الاهتمام بسيرة عثمان. فكان عند الدكتور هيكل آخر ما ألف قبل موته — عليه رحمة الله — وتركه دون أن يكمله حتى اضطر أبناؤه لكى ينشروه أن يضيفوا اليه الفصل الأخير بقلم الدكتور محمد جمال سرور. وكان عند العقاد آخر ما ألف عن عظماء الاسلام الأولين ، اذ انه لم يكتب بعده الا كتابه عن معاوية بن ابى سفيان ، ومعاوية فى نظر العقاد قدير ولكنه ليس بالعبقرى ولا بالعظيم . وكان عند الدكتور طه حسين أول ما ألف عن الراشدين ، اذ لم يسبقه الا « على هامش السيرة » .

وليس هذا الاختلاف فى الاهتمام بسيطا أو تافها كما يبدو للنظرة العجلى ، بل هو دليل على اختلاف عميق فى النظر والمنهج والاتجاه . فالدكتور طه حسين ليس من همه أن يجلو صور العظمة فى العظماء ، ولا أن يسرد تاريخ الأحداث التى حدثت فى زمن الرسالة وما تلاه ، بقدر ما يهمه أن يتتبع الدعوة من بدايتها فى السيرة النبوية الى الفتنة الكبرى التى أوشكت أن تطيح بها ، فلم يكتب صورة النبى ولا سيرة النبى بل كتب « على هامش السيرة » . ولم يكتب صورة عثمان ولا سيرة عثمان بل كتب « الفتنة الكبرى » وجزؤها الأول هو عثمان ، ثم أردفه بالجزء الثانى « على وبنوه » ، ثم عاد بعد هذا الى فترة الدعة النسبية ليكتب عنها كتابا واحدا يضم أبا بكر وعمر هو «الشيخان» .. فذلك تاريخ حركة أو دعوة من بدايتها الى منتهاها الذى تلاه التغيير .

□□□

والدكتور هيكل لم يكن يهمه تصوير العظماء ولا أطوار الدعوة بقدر ما كان يهمه تحقيق الاتهامات — صحيحات ومفتريات — التى نسبت لرجالات ذلك العهد لكى يترافع عنهم بعد دراسة نزيهة مستفيضة . ولهذا فقد كتب كتبه متتبعا النسق الذى اختارته الأيام ، فكتب عن « حياة محمد » ثم « ابو بكر الصديق » ثم « الفاروق عمر » ثم « عثمان بن عفان » . ولو نسأ الله له فى العمر ، أو لو اعفته السياسة فى عمره الخصب ، لأتم « عثمان بن عفان » ولأردفه بكتاب « على بن أبى طالب » ، ملتزما فى تسميته ما التزمه فى كتبه السابقة بذكر الاسم واللقب جميعا ، اذ لا يكفيه ان يسمى كتابه « الصديق » و « الفاروق » وكأنه محام لابد ان يذكر أسماء موكليه كاملة وبالترتيب أمام محكمة التاريخ .

أما العقاد — تلميذ بلوتارك وشيكسبير — فلم يكن يهتم بتحقيق التاريخ ولا بأطوار الحركة ، بل اهتمامه منصب على العظمة والعبقرية النفسية والخلقية ، فلم يلتزم بترتيب تاريخى، ولا بمنصب فى الامارة ، ولا بأطوار فى الدعوة بين النشأة والامتداد والفتنة ، وانما كتب عن عمر قبل الصديق ، وعن أبى الشهداء الحسين بن على بعد بلال بن رباح مؤذن الرسول ، وكتب عن عمرو بن العاص قبل كتابته عن ذى النورين وعن معاوية بنحو عشرة أعوام . فلا ترتيب هناك ولا امارة ولا أطوار حركة ، بل هناك عبقرية وهناك عظمة وهناك مقدرة ، ولكل واحدة من هذه الصفات ميزانها فى القيم المثالية الانسانية ، ميزانا كميزان العدالة معصوب العينين وفى يده سيف مشحوذ بتار . لأن التاريخ ، عرض الانسانية ولا ينبغى أن يستباح عرض الانسانية ، وحسب المنافق والوصولى انه استمتع بدنياه ، فلا يصح أن يستمتع أيضا بالقيمة بعد الممات ، كما قال فى كتابه عن معاوية وكتابه عن أبى الشهداء ، وكما ضن بالعبقرية على عثمان بن عفان وأولاه صفة العظيم حين قال : **« وهذه السيرة الرابعة من سير الخلفاء الراشدين لا نسميها بالعبقرية كما سمينا عبقرية عمر وعبقرية الامام وعبقرية الصديق ، لاننا لا نؤمن بالعبقرية لعثمان رضى الله عنه ، ونؤمن فى الحق أنه ذو النورين : نور اليقين ونور الأريحية والخلق الأمين »** .

فاختلاف الاهتمام بعثمان اختلاف عابر لا

لا اهمية له اذا نظر اليه بالنظرة العجلى ، ولكنه الخلاف الذى يدلك على الفارق الذى تحصل عليه بعد الاستقراء الطويل : فارق بين قاضى التحقيق وفيلسوف المذهب ، عليهما رحمة الله ، وبين داعية الحركة ، أمد الله له فى البقاء .

فقاضى التحقيق ، الدكتور هيكل ، يتتبع تاريخ عثمان حادثة حادثة ، فاذا ما ورد على موضع خلاف بين المؤرخين ، أو بالأحرى بين شهود النفى والاثبات ، ذكر كل ما جرى على السنتهم ، سواء أكان لذكره اهمية أم كان الخلاف برمته غير ذى اهمية ولا يغير شيئا . مثال ذلك ما أورده عن بيعة على لعثمان ، هل كان أول المبايعين ، أم كان آخر المبايعين ، أم كان من المتمنعين عن البيعة حتى قال له عبد الرحمن بن عوف مستشهدا بآى الذكر الحكيم : ((**فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما**)) . ــ وبهذه المناسبة ينبغى توجيه اللوم الى ناشر الكتاب الذى أهمل فصحف فى القرآن وحرف مستبدلا الواو بالفاء الأولى فى الآية ، ومضيفا ((الله)) بعد ((فسيؤتيه)) . وهو عدم دقة غير معروف عن الدكتور المؤلف . (راجع ص ٣٩)

هذا مثل على اختلاف له أهميته ، لا سيما وقد قيل ان عليا لما سمع الآية رجع فبايع وهو يقول : ان هذا امر ائتمرتموه ، ولابد ان يأخذ الكتاب أجله ((فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون)) .

وامثلة أخرى عن اختلافات غير ذات بال ، ينتهى المؤلف منها الى قوله ((ومهما يكن من امر ..)) او نحو ذلك . منها تفصيله القول فى مسألة الوليد بن عقبة هل ذهب الى اذربيجان واليا على الكوفة ، ام ذهب والكوفة تحت امرة سعد بن ابى وقاص أم تحت امرة المغيرة بن شعبة ؟ وهل ذهب فى سنة اربع وعشرين أم خمس وعشرين أم ست وعشرين أم سبع وعشرين أم ثمان وعشرين ؟ وهل ذهب أولا الى أذربيجان أم بدأ ببعض الولايات القريبة منها حتى تمكن منها آخر الأمر ؟ مهما يكن من الأمر فقد قضى على انتقاض هذه المنطقة الذى انتقضوه بعد مقتل الفاروق .. ومنها مثل هذا التفصيل عن عبد الله بن سعد بن أبى سرح وعمرو بن العاص فى رد غزوة الروم لمصر وفتح شمال افريقية وولاية مصر وما أفاء به عثمان على عبد الله بن سعد ومروان بن الحكم من فئ افريقية ، لينتهى منه الى مثل ما انتهى اليه سابقه .. ولسنا ندرى ، اذ ربما لو أكمل كتابه بنفسه أن تظهر لنا اهمية هذه الخلافات فى الفتنة التى اندلعت بعد ذلك بسنوات ، ولكنه على كل حال أمانة فى التحقيق وجلد فى تتبع الشواهد والروايات يستحقان الاعجاب سواء أفادا شيئا أم تساوى الأمر فى كل الاحتمالات .. وهكذا يكون قاضى التحقيق النزيه .

□□□

على غير هذا النحو من التحقيق وتتبع الشواهد كان منحى العقاد . فالعقاد فيلسوف ذو رسالة ، وكل شخصية ترجم لها لم تكن عنده الا شاهدا على صحة المبادىء الاصلاحية التى يدعو اليها ، وهى مبادىء الحق والقوة والجمال ، ومبادىء تعظيم العظمة الانسانية لأنها الكسب الذى كسبته الانسانية من تاريخها ، واحترام المبادىء الخلقية القويمة لأنها هى هدف صراع الانسانية مع الضرورة الطبيعية العمياء ، والايمان بالعقيدة الروحية لأن المادية لا تشبع النفس الانسانية ، ولا حتى تصلح تفسيرا علميا صحيحا لظواهر الكون والحياة . فاذا استهدفت بعض الأيديولوجيات التفسير المادى للحياة والأخلاق ، واذا نظرت الى العظيم نظرة تحقير كأنه سارق نصيبا من ارزاق الناس بالباطل ، واذا جعلت الدين والاعتقاد خدعة وحبالة نصبها فريق من المضللين المبطلين ليخدعوا بها العامة عن حقوقهم ، فان رسالة العقاد هى أن يظهر بطلان التفسير المادى وحقيقة التفسير الروحى والجمالى للحياة والأخلاق ، وان يقر للعظمة الانسانية حقها فى التعظيم بوصفها كسبا للانسانية كلها وليست كسبا للعظيم وحده ، وأن يبين ان مناط الحياة السليمة هو الاخلاق القويمة ، وان لا اخلاق بغير عقيدة تعلو على الفرد وتجعل للايثار والفداء معنى يستريح له الانسان .

لهذا لم يقتصر فى تراجمه على العظماء المسلمين ، بل الف عن عظماء كل الديانات والأقوام ، وأيد المثالية والعقيدة الروحية فى مقابل كل مادية فى الخلق وفى الاعتقاد . وكان طبيعيا أن يكون أكثر عظمائه من عظماء الاسلام، لأن عقيدته هو كانت الاسلام ، ولأنهم أقرب آصرة به من غيرهم ، ولأنهم احق بأن يكشف ستار الجهل والتجاهل عنهم ، ولأنهم أكثر عددا واوفى تنوعا من اصحاب اى عقيدة أخرى .

وليس الاسلام عنده مجرد دين لقى أبويه يدينان به فتبعهما عليه ، بل كان اسلامه اعتقادا بأنه أجدر عقيدة بروح الانسان وعقله ووجدانه فى العصر الحديث ، وما دام الهدف المعقول الذى تسعى اليه الانسانية فى طويل أزمانها وآبادها هو الوصول الى التوازن التام بين توفير الحرية الفردية والتعاون والتكافل بين الأمم والجماعات ،فان الاسلام هو دين العصر بغير منازعة ولا تعصب،لأنه هو الذى يحقق بتعاليمه الاعتقادية ، وشرائعه فى علاقات الانسان بالله وبأخيه الانسان هذا التوازن المرغوب .

وليس عظماء المسلمين عنده عظماء فى نظر المسلم الذى يسلم لهم بالعظمة بحكم دينه واعتقاده ، بل هم عظماء فى نظر كل منصف ولو لم يكن ذا عقيدة ولا دين . وهم فى نظره أبرز دليل على امكان الانسان أن يبلغ ذروة العبقرية والشهادة فى سبيل المبدأ الحق ، وعلى امكان المجتمع ان يبلغ غاية السعادة بغير اللجوء الى مذاهب الهدم والضياع

لهذا جاء كتابه « ذو النورين » قائما على محورين : أولهما أثر الدين الجديد على دوافع السلوك الفردى والجماعى ، وكيف ان الخلاف بين الناس كان موجودا قبل الاسلام وظل موجودا مع الاسلام ، ولكن الاسلام قد استطاع أن يغير من دوافع الخلاف فارتقى بها فى جيل واحد أوجا لا ترقاه فى أجيال .

□□□

يقول فى الفصل الأول : **« لم يمض جيل على الاسلام ويقتل خليفة المسلمين هذه القتلة ؟ .. فماذا صنعت هذه العقيدة اذن بنفوس الحاكمين والمحكومين ؟ .. وماذا تغير من فتكات الجاهلية بعد جهاد المؤمنين وايمان الكافرين ؟ ..**

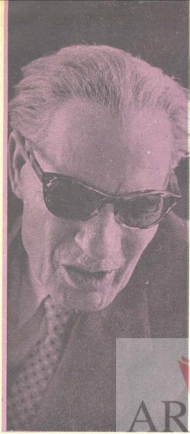
« والسؤال صدمة عنيفة ، ولكنه قائم على خطأ جسيم ، وان يكن خطأ قريب التصحيح .. ان العقيدة لا تلغى الحوادث والخصومات ، ولكنها تجدد القيم التى تدور عليها الحوادث والخصومات .. لقد كان مدار الخصومة على محاسبة الامام : محاسبة الرعية لامامها ، ومحاسبة الامام لنفسه، وكل أولئك شىء جديد فى التاريخ ، وكل أولئك شىء يقيم ويقعد فى حياة الامم ، ولا سيما حياتها فى أطوار العقيدة الأولى . » (ط ٢ ، ص : ١٧ ــ ١٩)

فمن كان ذا مأرب فى اتهام العقيدة الروحية بأنها لا تغير من شراسة الانسان بدليل مقتل عثمان بعد ربع قرن من موت رسول العقيدة الجديدة على يد رعيته الثائرة به ، فمهمة العقاد أن يبين له خطاه فى الحساب والفهم والاتهام ، وأن يقول له انه هو الغافل عن فضل الاسلام فى الارتقاء بالشعوب .

□□□

ذلك هو المحور الأول ، محور تبرئة العقيدة من اتهام أصحاب المآرب فى الاتهام .

أما المحور الثانى ، فهو وضع مقتل الخليفة الأمين فى موضعه من حوادث التاريخ ، فلا يعدو به أحد مكانه من الأهمية ، ليتخذ منه بعد ذلك ذريعة لطعن الاسلام والمسلمين . فمقتل عثمان يختلف عن مقتل شارل الأول فى انجلترا ولويس السادس عشر فى فرنسا ، لأن هذين قتلا بعد هزيمة اجتمعت فيها الأمة بكل قوتها ضد طاغية استعان بكل وسائله للقضاء على مقاومة الأمة ، محاولة منه اقرار سلطته ونظامه القائم ، ومحاولة من الأمة أن تستبدل به وبنظامه المستبد نظاما ديمقراطيا لا مجال للاستبداد فيه . أما مقتل عثمان فانه لا يزيد على مشاغبة :همباء ، كان يمكن أن يمنع من وقوعها شىء من الحراسة حول دار ولى الأمر ، أو كما قال العقاد فى احدى جوامع كلمه : **« وتسوروا الدار ولغوا فى دم طهور ، لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء فى سبيله لعز عليهم أن يسفكوه».**



فلئن دلت هذه القتلة على شيء فانما تدل على البطر بالحقوق والمحاسبة عليها عند اناس يطلبون من الامام ان يكون على سنة الخلافة فى الزهد والعدل والايثار وهم أنفسهم لم يكونوا على سنة رعية الخلافة زهدا وعدلا وايثارا . أما أنهم يريدون تغييرا دستوريا ونظاما قائما فهذا ما لم يقله احد ولا طاف بذهن انسان ، وهم الذين كانوا يريدون بدلا من الامام القرشى المقتول اماما من بنى هاشم يسير على نهج النبى والصديق والفاروق .

ويلحق بتصحيح دلالة القتلة البشعة تصحيح أسبابها ، فمن قال ان سببها هو ابن السوداء فقد أخطأ لأن ابن السوداء أضعف واهون من ذلك . ومن ظن – كما ظن معاوية – انه هو الشورى التى أوصى بها عمر قبيل موته فقد أخطأ لأن الستة ما كانوا ليختلفوا لمجرد اختيارهم للجنة الشورى لولا أن الخلاف كان قائما ، ولا كان عمر يلجأ الى الشورى والناس متفقون ، فلولا ظهور بوادر الخلاف لما كان للشورى سبب يدعو عمر الى الوصاة بها ، ولا كان يحدث منها ضير مع اتفاق الناس . ومن قال انها المحاباة فقد أخطأ لأن عثمان قد زاد فى أعطيات الجميع . ومن قال انها البدع التى ابتدعها ولم يسبقه اليها أحد فى أمور الدنيا أو أمور الدين كاتمام الصلاة بدل قصرها ، أو بناء مسجد الرسول على غير هندسته فى عهد الرسول وخليفتيه فقد أخطأ ، لأن عمر من قبله قد ابتدع اكثر من ذلك وأعمق حتى استأصل شجرة الرضوان فلم يثر عليه أحد .

أما السبب الحق فهو تغير العهد وتغير الناس. فما كان من المعقول أن تظل دفعة النبوة تشد الناس الى المثل الأعلى فى الحماسة والفداء الى الابد ، فما انقضت حقبة بعد الرسول حتى تهيأ الناس للنظر الى الدنيا يصيبون منها ، وهى حالة قيل ان النبى عليه الصلاة والسلام تنبأ بها ، واشتد ابو بكر فى التحذير منها حتى بلغ التحذير منه حد التقريع ، وشكا عمر من بوادرها واتخذ من الاجراءات ماظنه كفيلا بتأجيلها ان عز عليه القضاء عليها ، وخاف منها عثمان ولخص اعراضها وحذرالناس منها ، وبكى منها على ابن ابى طالب من بعده أو كاد فى خطب عديدة على انصاره . ولم يبق ذو مكانة ولا حيثية فى ذلك الزمن الا وقال فيها قولا مأثورا ، ولعل أبلغ ما قيل فيها قول عبد الرحمن بن عوف لمن سأله مستنكرا ان كان الذى نزل عليهم غير الذى نزل على سائر المسلمين فقال : ((**كلا ، ولكننا ابتلينا بالمحنة فصبرنا ، وبالنعمة فلم نصبر .**)) فالأمر اذن أمر تحول من الخلافة الى الملك ، ومن العمل للآخرة الى النظر الى متاع الحياة الدنيا ، ولن يصلح فى عهد الملك خليفة ليست له وسائل الملك ، وما كان لينجح فى الأمر غير عثمان لو تولى الأمر أحد غير عثمان . وما نجح معاوية وتغلب على على لأنه أكفأ منه ولا أفضل منه ولا أحق منه ، ولكنه أراد الملك والملك يريده والزمن بمرادهما أتى طيع ، وبنهج على عصى ممناع .

كتاب لم يكتبه مؤرخ للحقبة ، ولا مدافع عن متهم ، ولكن كتبه فيلسوف يرد عن العقيدة

الروحية سهام متهميها ، وعن العظمة الانسانية افتئات منتقصيها ، ليقر لعقيدة الروح وعظمة الخلق الأمين الفضـــل بين الناس ، وليبشرهم بالقدوة الحسنة لعلهم أن يسيروا وراءهم على الطريق .

فعلى فيلسوف الاسلام رحمة ورضوان من رب الأنام .

□□□

اما ثالث الثلاثة فهو الداعية

ولربما تبادر الى الظن أن الداعية والفيلسوف شيء واحـد ، ولكنهمـا فى الحقيقة شـــيئان مختلفان ، وانما يختلط الأمر على الناس فيهما لأن الأغلب ان يكون الفيلسوف داعية فى الوقت نفسه ، فهو بوصفه فيلسوفا ينشىء أو يبتكر أو يجدد مبدأ لرسالته ، ثم هو يدعو لمبدئه هذا فى الاصـــلاح ــ كذلك كان سـقراط والغزالى وروسو والعقاد . ولكن هذا لا يمنع من أن يكون الفيلسوف فيلسوفا وحسب ، يبتدع ولا يدعو احدا ــ كذلك كان عمنويل كانت ، وكذلك كان يتظاهر رينيه ديكارت ، وهو القائل فى « مقال فى المنهج : « **ليس مقصدى اذن أن أبشر بالمنهج الذى ينبغى على كل واحد** أن ينتهجه **ليهدى به عقله ، بل مجرد أن أصف الطريقة التى حاولت بها هداية عقلى أنا »**

وكما يمكن أن يقتصر الفيلسوف على الفلسفة دون الدعوة ، كذلك يمكن أن يقتصر الداعيـــة على الدعوة دون ابتداع أو حتى تحوير فى المبدأ الذى اختاره ليدعو له . وهكذا كان الدكتـــور طه حسين .

درس منهج البحث فى اوربا فأعجبه وظن أن خير ما تطعم به الثقافة العصرية فى لغة الضاد هو اصطناع هذا المنهج المكسوب ، فجاءت كل كتبه تقريبا مثلا على الفائدة المســـتفادة من اصطناع هذا المنهج العلمى الحديث . ولا نزاع فى أنه صاحب فضل فى هذا كبير وأنه جدير بكل تقدير .

□□□

الخلاصة السريعة جدا لهـــذا المنهج هى الموضوعية ونزاهة البحث والشك حتى تقوم البينة على ما يراد له اليقين ، ومعـــذرة أننا لا نستطيع ــ لضيق المقام ــ أن نبسط القول فى كل من هذه الخصائص الثلاث · ولكنك تقرأ أى كتاب من كتب الدكتور الكبير وعلى رأسها الجزء الأول من « الفتنة الكبرى » الخاص بعثمان بن عفان فلا تخطىء الاخلاص الشديد لمعطيات هذا المنهج وان تستتر بالبراعة الفائقة فى التطبيق وبالسيطرة الكاملة على جزئياته حتى لكأنه منه نابع واليه راجع ·

فمن الاخلاص البالغ التزام الدكتور الحياد التام ازاء موضوعه ، وهو مايسمى بالنزاهة ، حتى لقد ينكر على نفسه بعض الحقوق التى لا ينازعه فيها أحد · بل لعله يبالغ فى التزام الحيـــدة الى درجة اغفال بعض الواجبـــات ، فهو مؤرخ وأديب ومفـــكر ومســـلم وعربى ، وليس للمؤرخ أن ينكص عن اصدار الحكم على الاشخاص والاحداث والا كان مستهينا بثقة قارئه فيه · فاذا كانت المســـألة تهم المفكر والمسلم والعربى، فالنكوص ليس من الشجاعة الادبية فى شىء ·

انظر الى حياده وهو يتكلم عن الصـــحابة المبشرين بالجنـــه والذين مات النبى راضـــيا عنهم ، ثم اختلفوا فيما بينهم حتى انتضـــوا السيوف وسيروا الجيوش يقاتلون بعضهـــم بعضا فيقول : «**فما عسى أنيكون موقفنا نحن من هؤلاء ؟ لا نستطيع أن نرضى عن أعمالهم جميعا ··· ولا نستطيع أن نحكم بالخطيئة على من نظن أنه قد خطىء ··· وما نحب أن نذهب فى أمرهم مذهب الذين عاصروهم من خصومهم وأنصارهم ··· وانما سبيلنا أن ننظر فى أعمالهم وأقوالهم من حيث صلتها بحياة الناس واحـــداث التاريخ ، وأن نخطىء من نخطىء ونصـــوب من نصـــوب منهم من هـــذه الجهة وحدها دون أن نقفى فى أمر دينهم بشىء ·· وهذا فى نفســـه كثير ، ولكن لا بد مما ليس منه بد · » (ص ٤٠ ــ ٤١)**

فاذا لم يجز للمسلم أن يحكم على هذه الأعمال وهؤلاء الأشخاص خلقيا ودينيا فلمن يجوز ! ولئن لم يلتزم بهذا الحياد ، أيكون خارجا عن

سنة الرسول وأحاديثه المتواترة وهو الذى قال للزبير بن العوام : « ولتقاتلنه (يعنى عليا) وأنت له ظالم » وهو الذى قال لنسائه: « أيتكن التى تنبحها كلاب الحواب ٠ » ؟ أم يكون خارجا عن قدوة كبار الصحابة وما منهم الا من قال شيئا ، لعل أوضحه ما جرى بين السيدة عائشة رضى الله عنها وبين عروة ابن الزبير وهو يصحبها فى طريق مكة حين جاءها نبأ مقتل عثمان ، فسمعها تصيح قائلة لأطالبن بدمه ــ فقال لها : «يا أمه ، أما كنت تحرضين على قتله وتقولين هذا قميص النبى لم يبل وقد أبلى عثمان سنته ؛ اقتلوا نعثلا فقر كفر ٠» الى تمام الحوار بين السيدة الجليلة وبين ابن اختها الجليل ؟

لو كان المؤلف مستشرقا غير مسلم لجاز له هذا الاحجام ، أما العربى المسلم فليس له أن يكتفى بالاخبار بأن الجمل قد أضعفت خصوم بنى أمية ، وأن الخوارج قد استنزفوا قوة على ، وأن « الظروف » قد خلصتهم من ابن الأشتر حتى استقر لهم الأمر فى نهاية المطاف ٠

مثل هذا! ليس حيادا بل احجام ، ولن يبلغ أحد من معاوية ما بلغ معاوية من نفسه وهو يحدث ابنة عثمان التى تطالبه بثأر أبيها فيعترف لها بأن مسألة الثأر لم تكن الا ذريعة أوصلتهم للامارة ، وللناس سيوف هى قوة له طالما كانت فى قرابها فانشحذوها فالله وحده يعلم لمن تكون وخير لها أن تكون زوجة أمير وابنة عم أمير من أن تكون امرأة من عامة الطغام ٠ ولن يبلغ ما بلغ عثمان من نفسه وهو يقول : « ولن تجد مثل عمر ، لن تجد مثل عمر ، لن تجد مثل عمر ٠ » ولو شئنا لمضينا الى مزيد ٠

غير أنه حرص يكشف لنا طبيعة الداعية للمنهج الذى يدعو اليه بما أقدم عليه وبما ترخص فيه ٠

وشىء آخر يطلعنا على هذه الرسالة نفسها عند داعية المنهج الجديد ، هى حرصه الشديد واحترامه الكامل لما يحترمه ويحرص عليه أصحاب المنهج الأوربيون ٠ انظر الى قوله بعد تحليل طويل لنظام الحكم فى صدر الاسلام وكنهه اذ يقول : « **واذن فلم يكن نظام الحكم فى ذلك الصدر من حياة المسلمين نظاما ديمقراطيا بمعناه الدقيق فى الفقه الدستورى عند القدماء أو المحدثين ٠** »

فماذا عسى أن يكون الحكم الديمقراطى فى الفقه الدستورى الدقيق ؟ جوهره ــ كما قال المؤلف ــ أنه حكم الشعب بالشعب للشعب ، وشكله هو ما نصت عليه الدساتير الديمقراطية قديمها وحديثها ، اما بالاقتراع العام بين سكان المدينة كلهم أو على ألسنة نوابهم فى العصر الحديث ٠

فهل هذه هى الديمقراطية ؟ وهل هذا هو جوهرها ؟ وماذا يعنى الشكل ان توفر الجوهر؟ وماذا للشكل من قيمة ان انعدم الجوهر ؟

ان الاخلاص لمسلمات الأساتذة الاوربيين هى التى حالت بين الدكتور وبين التفكير الحر فى جوهر الديمقراطية ، وجعلته يقتنع بكلمة لنكولن التى اقتنع بها فقهاء الدستور ، مع أنها كلمة غير دقيقة ولا تدل على شىء محدد غير مبهم ، وتحتمل الكثير من التأويل والتشكيل ، وحسبك أن تتفكر فى معنى كلمة « الشعب » وأن تحاول تحديدها تحديدا دستوريا دقيقا لتعلم أنها وراء كل تحديد ٠ ولعل أحسن ما أثر من تعريف بجوهر الديمقراطية هو الذى ورد عرضا فى قصة خيالية هى « حول العالم فى ثمانين يوما » اذ تروى القصة أن القطار قد وقف بالسفر أمام جسر يهدد بالسقوط ٠ فاقترح أحد السفر أن يعبر القطار الجسر بأقصى سرعة ممكنة ، فسيجتازه حتما ولو انهار الجسر بعد اجتيازه ، فلقى هذا الرأى الحماسة والتأييد وتعالت أصوات الموافقة جارفة فى تيارها رأى «باسبارتوه» بالرغم من أنه أصح وأسلم غبا ، وخلاصته أن يعبر السفر الجسر حاملين ما استطاعوا من ثقلهم ومتاعهم ، ثم يتلوهم القطار أخف وأقدر على الاسراع وأولى بالنجاح فى العبور ٠

من هذا يبدو جوهر الديمقراطية ، وهو أنها نظام الحكم الذى يتخذ القرارات فى أناة وتؤدة ، ويترك الفرصة لكل صاحب رأى أن يقوله ، وتتكفل الدولة بحماية رأى

القلة من طغيان رأى الدولة الغالبة بقوتها ورأى الجمهور الغالب بكثرته ، فان كان فى رأى القلة منفعة لم تفت المجموع ، وان لم تكن فيه منفعة فلا خوف من القلة على قوة الدولة ولا على كثرة الجمهور ، ولو فرض ولم ينجح لم تكن الخسارة كبيرة فيه .

مثل هذه الحكمة فى نظام الحكم ، كائنا ما شكله وحدود العلاقات الدستورية المكتوبة فيه ، هو الذى يجعل الحكم ديمقراطيا ، وهو هو الأساس الذى قام عليه حكم الراشدين ، فهو اذن حكم ديمقراطى ولو لم يعترف به فقهاء الدستور من الغربيين .

ان التسليم بما لايستحق الأخذ به بله التسليم ، وان الشك حتى حيث يحسن القطع باليقين ، وان الحياد حتى حين يكون الحياد موقفا مبالغا فيه ولا معنى له ، لهى دلائل قاطعة على أن الدكتور طه تلميذ مخلص لأساتذة المنهج الأوربى يدعو بدعوتهم ولا يسمح لنفسه بالتصرف فيها ، مع أنه يعلم أن الشك والحياد كانا عند ديكارت موقفا دبلوماسيا اتخذه ازاء سطوة كرادلة الكنيسة ورجال الدين لما رأى مصير جاليليو يتهدده وليست له ظروف كبلر التى حمته من الانتقام الذريع على يد الكنيسيين المتنطسين .

الا أنه والحق يقال داعية عبقرى وتلميذ مخلص نجيب – أمد الله له فى البقاء .

***

وأنت أيها القارىء ، لا أظنك مستفيدا تمام الفائدة ان لم تقرأ الكتب الثلاثة ، ولا تكتمل لك المتعة الا أن تقرأ كل كتاب منهم بوصفه حلقة فى سلسلة اسلاميات مؤلفة ، فستبدو لك عندئذ متلألئة أضواء المحقق النزيه ، والفيلسوف المبدع وداعية المنهج الأريب .

احمد ابراهيم الشريف

النقد والنقاد المعاصرون

عرض ونقد عبد الحي دياب



الدكتور محمد مندور

الناشر
دار نهضة مصر
٢٢٠ صفحة – ١٧×٢٤ سم

لا يستطيع ناقد منصف يقوم بتاريخ النقد الادبى فى الجامعات ان ينكر الدور الذى قام به الدكتور محمد مندور ، فقد أكمل الدور الذى بدأه المرحوم الدكتور أحمد ضيف بكتابيه : مقدمة « دراسة بلاغة العرب » و«بلاغة العرب فى الاندلس » اللذين صدرا منذ أربعين عاما ، ثم تخلى الدكتور ضيف عن الانتاج والتأليف فى هذا الميدان بعد ذلك ، احتجاجا على تدخل السياسة فى الادب آنذاك ، واقصائه عن الجامعة ليدرس فى مدرسة المعلمين العليا ٠

ويمضى النقد فى الجامعة ممتطيا سلحفاة مريضة هزيلة ، لاتستطيع حراكا ، ولا ينبعث لها صوت ، اللهم ما يسمع من أنين المحتضر ، ثم عين بالجامعة معيد يدعى محمد عبد الحميد مندور ، وذلك بعد عودته من فرنسا ، ولكنه وهو المعيد استطاع أن يخوض معارك نقدية ٠

ومهما يكن من أمر تلك المعارك وأمر موضوعيتها ، ومهما يقال فى مجانبتها للصواب ومحالفتها لعدم التوفيق فى بعض مقالاتها ـ بل اننى لأزيد القارىء ايضاحا ، حينما أقول : اننى قد لا أوافق على ما جاء فى بعض مقالاتها، وأن لى فى تلك المقالات رأيا مدعوما بأسانيد أزعم صدقها ـ بالرغم من ذلك كله ، فان الانصاف يقتضينى القول بأن تلك المعارك كانت ثمرتها كتبه الآتية : « فى الميزان الجديد ، وقضايا أدبية ، وفى الادب والنقد » وغيرها من الكتب التى تحمل فى أطوالها وجهة نظر جديدة ، وفلسفة جديدة تحاول أن تربط الاتجاه الادبى بالسياسة والفلسفة ، حتى تتساوق الاتجاهات الثلاثة ، وتسير جنبا الى جنب فى وجدان الادباء فى عملية الابداع ٠

ومن الظلم للدكتور مندور أن يظن أن انتاجه لايعدو تلك المعارك السابقة، لأن له كتبا علمية نزعم أن بعضها يعد مرجعا لها ٠٠ وذلك مثل « النقد المنهجى عند العرب » وهو تاريخ للنقد والنقاد عند العرب القدماء ، و «الشعر المصرى بعد شوقى » ، وما كتبه عن المسرح ومؤلفيه ، وغير ذلك من الكتب التى يضيق المقام بذكرها ٠ وعلى الرغم من مخالفتنا له فى الكثير من القضايا النقدية ، لأننا نؤمن بوجهة نظر أخرى ، لا يسعنا الا أن نشهد على أنفسنا بالتلمذة على الدكتور مندور ، مع المخالفة حينا والموافقة حينا آخر ، ولكننا فى تلك الحالين قد استفدنا من فكره ، ومن هنا جاءت التلمذة ، كما جاءت لغيرنا من كتاب الشباب ، وممن هم دون الخمسين من العمر ٠ وجاءت التلمذة دون أن تحدها قوانين ولوائح، وتعيين كتب بذاتها لقراءتها فى فرقة ما ٠٠ ومن ثم فاننا نرى أن هذه التلمذة الاصيلة التى يطمع فيها كثير من المفكرين والادباء ٠

★★★

وبعد هذه المقدمة التى نراها ضرورية فى هذا المقام نستطيع أن نقول ان الدكتور مندور كان قد أصدر كتابا جديدا كل الجدة من حيث موضوعه ومنهجه .. وفى صدور هذا الكتاب افحام لفريق من الشباب الذين مردوا على الحقد والحسد للعظمة على اختلاف أنواعها من حيث الدرجة والنوع ، فراحوا يمشون فى المدينة زاعمين أن الدكتور مندور قد توقف عن الانتاج ، وأنه أصبح يردد مفاهيمه القديمة ، التى سبق ايضاحها فى كتبه الاولى ، ومن ثم كان صدور هذا الكتاب يعد لطمة قاسية على أذهان هؤلاء وقلوبهم، جزاء لما سوغه لهم خلطهم العقلى بتلك الدعاوى العرجاء .

والذى نود أن يتقرر فى أذهان القراء، أن هذا الجيل كله خير ، لأنه ليس كله مندور وأمثاله من الدارسين والمبدعين .. وليس معنى هذا كذلك أننا اتفقنا مع الدكتور مندور فى كل قضاياه النقدية ، ولكننا نعرف للرجل فضله فى هذا الميدان ، ومن هنا فاننا حينما نختلف وهناك فرض من جهتنا .. يتضمن أن الرجل أستاذ ووالد ، ومن ثم يأتى الخلاف كما يختلف الابن مع أبيه ، وكما يداعب التلميذ أستاذه .

***

وعلى هذا المستوى من الفهم والاحساس بجهود الدكتور مندور وجيله العظيم ، نتوجه بالحديث عن كتابه « النقد والنقاد المعاصرون » ، ويتمثل هذا الكتاب فى حلقات نشرها قبل ذلك فى مجلة « المجلة » فى عام ١٩٥٩، عالج فيها بالدراسة الموضوعية لفيفا من النقاد ، من بينهم الشيخ حسين المرصفى ، وميخائيل نعيمة ، وعبد الرحمن شكرى ، وعباس العقاد، وابراهيم المازنى ، ولويس عوض ، ويحيى حقى ، ثم ختمه ببحث ضاف عن النقد الايديولوجى . وفى ثنايا حديثه عن هؤلاء كان يعالج القضايا الأدبية الكبرى . ومن هنا فانه يسوغ لنا أن نقول ان الكتاب بالرغم من صغر حجمه ، خطير كل الخطورة ، لأن المؤلف قام فيه بتقويم بعض النقاد السابق ذكرهم ، والقضايا الأدبية الكبرى ، وما دار حولها من معارك نقدية ، وخرج فى دراساته لهؤلاء ولتلك القضايا بآراء نزعم أن أحدا لما يصل اليها بعد ، ومن ثم كانت الخطورة لهذا الكتاب ، لأن هذه الآراء الجديدة لا بد من مناقشتها ودراستها، اذ أن الكتاب فيما نعتقد لهذا السبب يعد كتاب كبير الاهمية ، الذى تكثر حوله الآراء موافقة أو مخالفة على سواء . غير أننا فى هذا المقام لا بد لنا من القول بأن مناقشة الكتاب من أوله الى آخره غير ميسورة فى مقالة واحدة ، ولذا فاننا سنقتصر على بعض دراساته التى تضمنها الكتاب .

وأول دراسة نتوجه للحديث عنها هى دراسته للحسين المرصفى الذى يرى الدكتور مندور أنه من رواد البعث الادبى المعاصر ، ومن بناته الاصليين وذلك لكتابه الوسيلة الادبية الضخمة وبخاصة ما كتبه عن صناعة الشعر والنثر وطريقة تعلمها ، ثم موازناته بين الشعراء والناثرين القدماء والمحدثين وأبرز فيها سمات التفوق الادبى والفنى ..

ويرى الدكتور مندور أن هذا الكتاب يشبه الى حد ما ، كتب الامالى العربية القديمة كامالى أبى على القالى ، وامالى المبرد وغيرهما ، وان اختلف عن الامالى القديمة فى أنه لم يقتصر على الادب وروايته ، بل شمل جميع علوم اللغة العربية من نحو وصرف وعروض وفصاحة وبيان وبديع ومعان، ثم الأدب بفرعيه الشعر والنثر متحدثا عن كل فن على حدة ، ولكن على طريقة الاستطراد والتداعى فى كتب الامالى القديمة .

على أننا نختلف مع الدكتور مندور فيما يختص بتشبيهه كتاب الوسيلة بكتب الأمالى القديمة ، لأن الوسيلة لا تخرج عن فصول بأكملها نقلها الشيخ المرصفى من كتب النقد القديمة التى صدرت فى القرن الرابع الهجرى مثل اعجاز القرآن للباقلانى » حينما تحدث عن نقاد الشعر القدامى فى الجزء الثانى من وسيلته ص ٤٢٩ ومابعدها .. حيث نقل نقد الباقلانى لقصيدتى امرىء القيس والبحترى فى اعجاز القرآن ص ١٠١ وما بعدها . كما نقل من ابن الاثير كيفية تعلم صناعة الانشاء من كتابه « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » ص ٦٧ وما بعدها نقلها المرصفى فى الجزء الثانى من وسيلته ص ٢٠١ وما بعدها . وبالاضافة الى ذلك ينقل أرجوزة استخلصها تقى الدين أبو بكر الحموى من كتاب « الصادح والباغم » ومطلعها :

الحمد لله الذى هذبنا
واختارنا للعلم اذ أدبنا
فان للآداب فضلا يذكر
فلا تخاطب كل من لا يشعر

ومن هنا نراه يوصى من يريد تعلم صناعة الانشاء بحفظ ما اختاره له من ديوان الحماسة من أبوابه العشرة ص ٢٩٩ وما بعدها بالجزء الثانى من الوسيلة . ثم يقوم بتلخيص كتاب « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى مدعيا أن هذا الكتاب يقف الانسان على جيد الشعر من رديئه ص ٣٥٧ جـ ٢ من الوسيلة .

على أن المرصفى أمين فى ذكر مصادره التى ينقل منها دائما ، وان لم يحدد صفحات المراجع التى ينقل منها .

واذا صح أن الوسيلة منقولة ، من المنابع الثرة من النقد القديم ، فاننا لا نرى داعيا لأن تقوم مقارنة بينها وبين كتب الامالى القديمة على يد أستاذنا الدكتور مندور .

والواقع أنه بالرغم من عمق الدكتور مندور فى فهم ما جاء فى

الوسيلة من نقد ، وتقويمه أدبيا ونقديا ، الا أننا نرى أن عدم رجوعه الى تلك المصادر التى نقل منها المرصفى كان سببا فى أن ينسب الدكتور مندور المبادىء النقدية الى المرصفى نفسه ، ويوازن بينها وبين مبادىء النقد الحديثة فى تقويمه لتلك المبادىء على أنهاله • ومن أمثلة ذلك ما قاله الدكتور مندور فى ص ١٥ : « ومن أهم ما تحدث عنه الشيخ حسين المرصفى فى وسيلته المنهج الذى رسمه لمعاصريه وتلاميذه لتجويد انتاجهم الشعرى والنثرى والسمو به الى مرتبة الادب العربى القديم البالغ الروعة والجمال » •

وفى اعتقادنا أن الدكتور رجع الى ما كتبه المرصفى فى صناعة الشعر وكيفية تعلمه فقط ، حينما كتب هذه الدراسة ، وبفطنة الاستاذ استطاع أن يرسم منهج المرصفى فى كتابه الضخم •• لكننا نرى أن هذه الفصول منقولة هى الاخرى من ابن خلدون فى مقدمته ، اذ نقل المرصفى من ابن خلدون « اللغة ملكة صناعية والذوق ، وصناعة الانشاء ، وعمل الشعر ، وصناعة الشعر فى الألفاظ لا فى المعانى ، وحصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ ، وكل هذه الفصول مذكورة فى المقدمة الالفاظ لا فى المعانى ، وحصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها المحفوظ ، وكل هذه الفصول مذكورة فى المقدمة من صفحة ٤٦٠ الى ٤٧٩ ، وقد قال المرصفى فى ص ٤٥٩ قبل أن ينقل تلك الفصول عن المقدمة فى مقام المفاضلة بين ضروب الشعر من حيث الألفاظ والمعانى : « فعليك اذن أن تجيد الفكرة باستصحاب ما سلف من القوانين والوصايا ـ يشير الى ما نقله من الكتب القديمة سابقا ، والتى أشرنا الى بعضها ـ فى تمييز جيد التراكيب من رديئها • ويزيدك استحضارا لها ، وتمكنا من اعتبارها ما سأنقله لك عن ابن خلدون رحمه الله تعالى ، قال فى مقدمة تاريخية ، حيث انتهى من القول فى العلوم الى التكلم على صناعة الشعر وكيفية تعلمه • هذا الفن من فنون •• الى آخره » •

ومن الطريف أن حديث ابن خلدون فى هذا الصدد ليس مبتكرا له ، وانما كتبه مما ترسب فى نفسه من كتاب العمدة لابن رشيق القيروانى ، وذلك حيث يقول فى صفحة ٤٧٧ : « فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى فى كتاب العمدة لابن رشيق ، وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد ، ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك ، وهذه نبذة كافية والله المعين » •

ومن هنا فاننا لا نلتقى مع الدكتور مندور فى فهم المرصفى ، اذ جعله الدكتور مندور صاحب ما تضمنته الوسيلة من آراء فى النقد ، ونزعم نحن أن هذه الآراء منقولة بجملتها من الكتب السابقة ، حتى التعريف للشعر الذى وقف عنده الدكتور مندور ليستدل به على فطرة المرصفى السليمة التى هدته الى التخلص من الهوة التى تردى فيها قدامة بن جعفر حينما عرف الشعر بأنه « الكلام الموزون المقفى » اذ أن المرصفى ينعى على هذا التعريف حينما يقول : وقول العروضيين فى حد الشعر انه الكلام الموزون المقفى ليس بحد لهذا الشعر باعتبار ما فيه من الاعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة ، فلا جرم أن حدهم ذلك لا يصلح له عندنا ، فلا بد من تعريف يعطينا حقيقة عن هذه الحيثية ، فنقول : ان الشعر هو الكلام البليغ المبنى على الاستعارة والاوصاف المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها فى عروضه ومقصده عما قبله وبعده. الجارى على أساليب العرب المخصوصة به » ويعلق الدكتور مندور على هذا التعريف بقوله فى ص ٢٤ : « ويكفيه فخرا فى هذا التعريف أنه فطن الى خاصية أساسية تميز الادب عامة والشعر خاصة عن غيره من الكتابات • وهى التصوير البيانى بدلا من التقرير الجاف » •

ولكننا نقول للدكتور مندور ان المرصفى لم يفطن الى هذه الخاصية ، وانما الذى فطن اليها هو ابن خلدون حيث ذكره فى مقدمته فى ص ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، بل انه شرح التعريف ، وبين الغرض الذى يقصده من الاساليب المخصوصة واستخدامها فى الشعر وعلاقتها بالمعانى ، وذلك حينما ذهب الى أنه لا يستعمل فى الشعر من الكلام الا الافصح من التراكيب ، والخالص من الضرورات اللسانية ، لأنها تنزل بالشعر عن طبقة البلاغة ، والذى لا شك فيه أن هذه المآخذ لا تغض من قيمة الدراسة من حيث جودتها وروعتها ولكن على شرط أن تنسب المبادىء لأصحابها ، وحسب المرصفى من ذلك كله أنه على وعى فكرى وأدبى استطاع به أن يورد النقد الجيد بعد أن طبعت الآثار النقدية فى القرن التاسع عشر ، استطاع أن يضمه فى وسيلته • ومن ثم فاننا نرى أن الدكتور مندور قد أعطاه أكثر من حقه ، ونأمل أن يأخذه منه فى الطبعة الثانية من هذا الكتاب ان شاء لله • أما الدراسة الثانية التى سنقف عندها فى هذه المقالة فهى دراسة عن عباس العقاد من حيث نقده •

وفى اعتقادنا أن الدكتور مندور كان موفقا كل التوفيق فى استخلاص فلسفة للعقاد تتمثل فى الحرية والفردية ، وأنه يصدر عنهما فى كل تفكيره وسلوكه فى الحياة ، وذلك اذ

←



يقول : « والاستاذ العقاد من النفر القليل فى بلادنا الذين نستطيع أن نستخلص لهم من مجموع انتاجهم الثقافى فلسفة عامة فى الحياة والادب وهى فلسفة يمكن أن نجملها فى لفظتين : « الفردية — والحرية » .

ويمضى الدكتور مندور فى حديثه عن الفردية لدى العقاد فيذهب الى أنها هى التى أوحت اليه بأن يناضل طوال حياته فى مجال الحياة العامة ضد الحكم المطلق ، أو المذاهب الجماعية التى يفنى فيها الفرد . فرأيناه فى سنة ١٩٢٨ يأخذ بخناق الحكم المطلق فى كتابه الذى يحمل هذا العنوان ، كما رأيناه يعود فى مطلع الحرب العالمية الثانية الى تأليف كتاب «هتلر فى الميزان » الذى يشجب فيه جميع أنواع الحكم الديكتاتورى الفاشى والنازى ، ثم رأيناه بعد ذلك يلحق المذهب الشيوعى بهذين المذهبين فى فى سخطه وعدائه العنيف ..

ويعتبر الدكتور مندور أن أصالة الفردية هى المبدأ العام الذى نجده خلف دعوة التجديد فى الشعر التى قادها فى النصف الاول من هذا القرن الاستاذ العقاد وصاحباه شكرى والمازنى . وهى الدعوة التى طالبت بأن يكون الشعر الغنائى تعبيرا عن الوجدان الفردى للشاعر . وقد نجحت هذه الدعوة وطبعت تجديدنا الشعرى كله بطابعها .. كما تحدث الدكتور مندور عن الحرية عند العقاد ورأى أن العقاد لا يصدر فى سلوكه وتفكيره فى الحياة والادب الا عن هذا المبدأ الخطير .

على أن الدكتور مندور ينصف العقاد أيما انصاف حين يعترف له بالقدرة الفائقة التى تعينه على تمثل ما يقرأ وهضمه ، حتى يستحيل الى جزء من ذاته ، ومن العناصر المكونة لشخصيته الثقافية والادبية ، حتى ليصعب أن نرجع هذا الرأى أو ذاك من آرائه الى هذا الاديب أو المفكر الغربى أو ذاك ، وذلك لأنه من القوة بحيث يطبع جميع آرائه بطابعه الخاص وكأنها منبعثة عن ذاته تلقائيا .. وهو فى هذا يختلف عن صاحبيه المازنى وشكرى ، ومن هنا كان أثره فى مدرسة الديوان النقدية أعم وأعمق وأشمل .

ثم يحدد المؤلف بدء معركة العقاد مع شوقى بأنه كان فى عام ١٩١٢ فى كتابه خلاصته اليومية ، اذ نقد رثاء شوقى لبطرس غالى .

وفى مجال النقد أثبت المؤلف للعقاد دعوته الى الصدق ، والشاعر الذى لايعرف من شعره لا يستحق أن يعرف، ووحدة القصيدة .

وفى حديثه عن الوحدة العضوية ترانا لا نتفق معه حين يذهب الى أن العقاد اختلطت لديه وحدة الغرض بالوحدة العضوية أى بناء القصيدة بناء هندسيا بحيث تخرج من يد الشاعر كالكائن العضوى الذى لا يمكن نقل جزء منه مكان آخر .

وبعد أن يسلم بأن هذه الدعوى سليمة من ناحية الفلسفة الجمالية لا يكاد يتصورها فى الشعر الغنائى الخالص الذى يقوم على تداعى الخواطر والمشاعر فى غير نسق وضعى محدد ، ولا يتصورها الا فى القصائد ذات الموضوع الذى له بدء ووسط ونهاية. على نحو مايشاهده فى قصائد الشبان المعروفين بالشعراء الواقعيين حيث يتخذ كل منهم موضوعا لقصيدته قصة قصيرة ، أو دراما سريعة يعالج بها احدى مشاكل عصره أو مجتمعه ..

ومن ثم فانه لابد لنا من وقفه فى هذا المقام ، لنبين فى ايجاز موقف العقاد من الوحدة العضوية التى يرى الدكتور مندور أنه اعتسف ايما اعتساف فى تطبيقها على احمد شوقى فالعقاد يرى أن القصيدة لابد أن تكون عملا فنيا يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه ، بحيث اذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها .

ويمضى العقاد فى حديثه وفى نفس الكتاب « الديوان فى الأدب والنقد » أنه لايريد من الوحدة العضوية أن تكون بناء هندسيا ، وانما يريد منها

أن تكون وحدة نفسية شعورية وفكرية للشاعر ، بحيث تجعله يصوغ قصيدته فى معنى موحد ، أو فى معنى ذى معان جزئية ، ولكنه يستوعب الفكرة فى كل جزء منها ، بحيث تصبح الفكرة معنى جزئيا قائما بذاته ، يكون بمثابة الموجة الشعورية ، وكل موجة تتداخل فى غيرها ، وتكون فى النهاية معنى كليا عاما للقصيدة ، ومن هنا تتحد أبيات هذه المعانى الجزئية كلما جاءت فى فكر الشاعر وعبرت عن خواطره واحساساته ولذا فانه من العسير ترتيب تلك المعانى الجزئية على نحو آخر يخالف ترتيب الشاعر لها .

ويوضح العقاد أكثر من هذا حينما ينبه من يستبهم عليهم الأمر فى الوحدة العضوية « أنه لا يريد تعقيبا كتعقيب الأقيسة المنطقية ، ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية ،وانما يريد أن يشيع الخاطر فى القصيدة ، ولا ينفرد كل بيت بخاطر ، فتكون كالأشياء المعلقة أشبه منها بالاعضاء المنسقة » .

واذا صح أن هذا كلام العقاد ، وصح مع ذلك أنه تحدث فى الوحدة العضوية نقدا وتطبيقا ما يتسع لكتاب بأكمله ، اذا صح هذا وذاك ، فاننا نرى أن العقاد لم تختلط لديه وحدة الغرض بالوحدة العضوية ، كما ذهب الى ذلك الدكتور مندور فى ص ١١٢ . أما من ناحية تسميتها بالوحدة العضوية وعدم موافقة المؤلف لها ، . فاننا نذكر أنه قد تطلب فى الموضوع أن يصوغه الشاعر فى تصميم هندسى . على نحو ما تصمم القصة أو المسرحية وتوزع أجزاؤها وتحدد وتتطور ، وذلك فى كتابه الشعر المصرى بعد شوقى فى ص ١٠٥ ، ١٠٦ ..

ونحن نرى أن تسمية العقاد بالوحدة العضوية على نحو ما رأينا سابقا ، وعلى نحو ما هو مذكور فى نقده لم نستطع ايراده هنا لضيق المقام .. نقول ان تسميته العقاد بالوحدةالعضوية أتم وأوفى من التصميم الهندسى ، لأن التصميم الهندسى اذا جاز فى الأدب الموضوعى كالقصة والمسرحية ، فانه لا يصح فى التعبير عن الوجدان الفردى فى الشعر الغنائى ، الذى هو عبارة عن سلسلة من الانفعالات والخواطر والهواجس مع تنظيمها فى التعبير والصياغة حتى تتساوق مع الفكر والمنطق .. لا أن تكون القصيدة خاطرة من هنا على هاجسة من هناك ، وبعد ذلك نسميها قصيدة خوفا على الشعر الغنائى كما يقول الدكتور مندور ..

على أننا لا نتفق مع الدكتور مندور حينما يزج بأحد طلبته فى نقده لهذا المبدأ مدعيا أن أحد طلبة القسم المسائى بمعهد التمثيل طبق هذا المبدأ على قصيدة رثاء للعقاد ، وأعاد ترتيب أبياتها ووضع حوار كل بيت رقم ترتيبه فى القصيدة الأصلية التى يرثى بها العقاد المرحوم حسين الحكيم من أدباء قنا المعروفين بالورع ومطلعها :

رفيق الصبا المعسول أبكيك والعتبا
وما كان أغلى ما بكيت وأطيبا

ونحن نفرق بين مبادىء العقاد النقدية وبين شعره ، ولعل الدكتور مندور يوافقنا على ذلك ، اذ أنه أعلن هذا فى أول مقالة من مقالاته الثلاث فى ص ٨٠ ، فقد يكون العقاد قمة فى مبادئه النقدية ، ومع ذلك لا يستطيع تطبيقها فى شعره ، وهذا من قبيل الافتراض فحسب .

فاذا عرفنا أن تلميذ الدكتور مخطىء كل الخطأ ، ودل على أنه لا يعرف فى الشعر شيئا الا كمعرفة أولاد البلد وأحلاس المقاهى ، عرفنا مقدار مجانبته التطبيق فى دراسة الدكتور مندور للصواب . وذلك لأن القصيدة تتسم بالوحدة العضوية ، اذ أنها بنية حية مستوفاة المعنى ، وتمثل موجات متداخلة فى بعضها ، لا تنفصل عن التيار المتسلسل الفياض ، وذلك لأنه يشيع فيها خاطر الحزن والاسى الدفين لفقد العقاد صديقه الطيب الورع .. وفى ثناياها يكمل تصوير خواطر ذكريات العقاد المتجانسة .. ذكرياته معصديقه .. فيعطينا صورته وشخصيته .. ويحدثنا مثلا عن ذكرى اللقاء الاول لصديقه فى قنا وما كان يدور بينهما من أمور الادب والحياة :

ألقاك عند النيل ان عدت فى قنا
وارعاك عند الجسر أن سرت مغربا

ثم يتعجب العقاد من موته وهو فى ريعان صباه ، ثم ذلك الصديق فىعين رفاقه وما عرفوه به من الصفات التى حببته اليهم ، ولا يترك العقاد رفاق صديقه ، بل يذكرهم بأثر تلك الصفات فى نفسه ، ووقع الخبر فى نفسه .

ثم تنتهى القصيدة بتصوير تأثير الموت فى نفس العقاد من جراء موت صديق عزيز لديه ..

والقصيدة فى تصورنا تتسم بالوحدة النفسية والشعورية والفكرية بحيث غدت بمثابة موجات شعورية متداخلة، مكونة فى النهاية معنى كليا عاما ، ومن هنا اتحدت أبياتها فى داخل موجاتها ، لأنها خرجت من وجدان شاعر واع لما يبدعه ، ويتسم ابداعه بالفكر والفلسفة — على حد تعبير الدكتور مندور نفسه فى ص ٩٧ ، ٩٨ .. غير أننا نشعر بضيق المقام لمناقشة ماهية الفلسفة والفكر فى شعر العقاد .. ومن ثم نرجىء الحديث عن ذلك الى موضع آخر .

وفى الوقت نفسه نتهم هذا الشعر نفسه بأنه لايتسم بالفكر، والا لتحققت فيه الوحدة العضوية ، لأن الوحدة العضوية تقوم أول ما تقوم على تساوى الفكر والشعور معا ..

ومهما يكن من أمر فاننا ننصف الدكتور مندور فى دراسته للعقاد ، حينما نقول بعد قراءتنا لكل ما كتب عن العقاد فى هذا الصدد ، حينما نقول ان الدكتور مندور قد درس العقاد دراسة عميقة لم يأت بها ناقد قبل ذلك ، وخاصة من أساتذة الجامعة الذين لا يعرف الكثير منهم مكانة نقد العقاد ، أو يعرفها ولكن لحاجة فى نفس يعقوب يغض الطرف عنها ..

وخلاصة ما نقول فى هذا الصدد ان الدكتور مندور بدراسته هذه عن العقاد قد دل على أمانة العالم لديه ، لأنه فى الوقت الذى يعترف للعقاد بالمبادىء النقدية التى تناولها فى دراسته التى استوعبت أكثر من ثلث الكتاب ، ويعترف له كذلك بالفلسفة العامة التى يصدر عنها ، ويدافع عنه



فى منهجه للدراسات الادبية ويختلف مع الدكتور سامى الدروبى فى ذلك .. حينما يعترف ويدافع ، نراه يغض الطرف عن رجل كالدكتور طه حسين فلم يكتب عنه فى هذه السلسلة شيئا .

ويتضح هذا من قوله فى كتابه الشعر بعد شوقى فى الحلقة الثانية ص ٦٠ ، ٦١ حينما يعلق على نقد طه حسين لقصيدة ابراهيم ناجى « وراء الغمام » : « بأن التجديد فى هذه القصيدة لم يرق فيما يبدو بعض كبار أدبائنا الذين لم يستطيعوا أن يتحرروا من معاجم اللغة ودلالاتها المتحجرة ، ويصف نقدهم بقوله : فهذا النقد الجارى على منطق الفقهاء أبعد ما يكون عن الفهم الدقيق لحقائق النفس البشرية .

ومعنى هذا أن الدكتور مندور سار فى كتابه ملتزما الحيدة العلمية الى حد كبير ، لولا أن صفة الطفولة الدائمة التى تلازمه فى نظرته الى الحياة هى التى توحى له بالمشاركة فى أغلب الاحايين ، وهذه الصفة هى دليلنا على العبقرية لدى العباقرة ، بل انها هى نفسها التى يتميز بها العقاد ، فنراه ينزع هو الآخر الى المشاكسة .

وعلى هذا المستوى من الفهم الدقيق سار الدكتور مندور فى دراسته للاستاذ يحيى حقى ، اذ يعترف بادىء ذى بدء بأنه لم يكن يعرف الاستاذ يحيى على حقيقته التى عرفها من خلال كتابه « خطوات فى النقد » ، فعرف فيه ذلك الرجل الهادىء الوديع ، البالغ الرقة ، الظاهر التواضع ، الذى يجمع الى كل هذه الجوانب عنفا دفينا فى الطبع يغلفه بغلالة من الحرير ، وقوة فى الانفعال يكسوها بثوب ديبلوماسى رقيق ، ومهارة فريدة فى فن وخز الابر ، على نحو يكاد يخفى على غير ذوى الحساسية المرهفة والفطنة البارعة لأساليب التعبير .

ويحدثنا الدكتور مندور فيرى أن الاستاذ يحيى حقى لم يخفق فى انشاء مذهب فى النقد ، وأن يكن هذا المذهب ليس تأثيريا خالصا ، لأن نقد الاستاذ يحيى حقى نقد تقييمى فى جوهره وان كانت أسس التقييم لا تنهض على الحاسة الجمالية وحدها ، بل يجمع اليها فطنة مرهفة لوظيفة اللغة بعناصرها المختلفة فى الادب ، وحاسة قوية بوظائف الادب الانسانية العامة والقومية المحلية .

ويرى الدكتور مندور أن الاتجاه الاصيل الخاص فى نقد الاستاذ يحيى حقى هو دراسة أساليب التعبير ، وضرورة الاهتمام بها فى الدرجة الاولى .. وجماع الرأى عنده أن الادب لا يمكن أن يجود ويتفوق الا اذا جاد أسلوبه .تفوقت كل عبارة من عباراته ، وعنده

أن العمل الادبى عملية خلق وابتكار مستمرين ، والخلق والابتكار لايكملان الا اذا اجتمعا فى المضمون والتعبير معا .

وفى الوقت الذى يقرر أن الاستاذ يحيى حقى ممن يؤمنون بأن الاسلوب هو الرجل نفسه ، ولذا يطالب كل كاتب أن يكون له أسلوبه الخاص الذى نعرفه من خلاله .. وفى نفس الوقت يأمل الدكتور مندور لو استطاع أن يستخلص فى ايجاز جميع الاصول العامة التى أوردها يحيى حقى فى كتابه عن علم الأسلوب، اذ أن كتابه يشتمل على أسس لعلم جديد على اللغة العربية هو علم الاسلوب ، ويجب أن نعنى به كل العناية ، لانه يقوم على أساس من حساسية جمالية ولغوية وعقلية بالغة الرهافة .

وبعد أن يعلن الدكتور مندور سروره بتطبيق الاستاذ يحيى حقى لأسس هذا العلم فى القصة والمسرحية لا يقر الاستاذ يحيى حقى « على قصر منهجه النقدى على علم الاسلوب بخاصة فى فنون الادب الموضوعية كالقصة والمسرحية اللتين هدتنى خبرتى الى ضرورة الاهتمام فى نقدهما بمصادر التجارب البشرية وأهدافها ، وأصول بنائها الفنى العام ، حتى لايقتصر النقد على الجزئيات مغفلا الكليات والاهداف والوظائف والاصول الفنية العامة فى البناء والتصويروالتحليل والتشخيص»

وفى موضع آخر نراه يقول : ان يحيى حقى قد قصر نقده عامدا متعمدا على علم الاسلوب الجمالى فى اللغة .. ولن يشفع له فى ذلك ادعاؤه أنه لم يدرس فى كلية آداب ، أو لم يتتبع تاريخ المذاهب فى الادب والنقد، فقراءاته فى كل ذلك تفوق بكثير قراءات كثير من دكاترة الجامعات ، ولكن الطبع غلاب .

وسواء علينا أن يعتبر الدكتور مندور الاستاذ يحيى حقى ناقدا موضوعيا أو أيديولوجيا أو ناقدا قد تطور من المنهج الجمالى الى غيره ، فاننا فى حاجة الى هذا المنهج الجمالى لكى نتخلص من ذلك الهراء ، الذى يكتبه مدعو كتابة القصص فى اللغة العربية وما أكثرهم حتى أصبحوا لا يحصيهم عد . وما كثروا ولا تفاقم خطرهم الا فى أحضان النقد ذى التجارب البشرية وأهدافها ، وأصول بنائها الفنى العام ..

على أننا نطمئن الدكتور مندور ان أى كاتب من كتاب القصة لا يمكن أن يصل الى المستوى الذى يتطلبه الاستاذ يحيى حقى فى التعبير ، الا بعد أن يكون قد تم نضجه فنيا من حيث الحبكة القصصية واستيعاب للتجارب البشرية .. وحتى لو لم يحدث هذا فما الذى يمنع أن يكون للاستاذ يحيى منهجه الذى يرسى به دعائم علم جديد فى أدبنا العربى من واقع نقده التطبيقى على الاعمال الادبية ، ليسد تلك الثغرة التى خلفها النقد على مستوى التجارب البشرية .

وفى اعتقادنا أن دعوة الدكتور مندور لكى ينقد الاستاذ يحيى حقى على حسب المنهج الذى ارتضاه لنفسه ، بعد أن تطور فى ميدان النقد ونظرياته ، انما هى من باب طيبة القلب التى نلاحظها بوضوح لدى « الشراقوة » ، لأنه لا يمكن بحال من الاحوال ، أن يسير النقد عندنا فى شارع واحد لا يتعداه ، اذ لو تم ذلك لكان ضربا من المصادرة الفكرية عندنا ، ومن ثم فلا بد أن تختلف اتجاهات النقد وتختلف بحسب النقاد الاصلاء ذوى العبقريات الخالقة ، وفى هذا الاختلاف دليل على تقدم النقد وازدهاره لا العكس .

ومهما يكن من أمر فاننا نود أن يتقرر فى الاذهان أن مخالفتنا للدكتور مندور فى بعض آرائه لا تغض من قيمة دراساته الادبية التى اشتمل عليها كتابه ، لأن هذه المخالفة ـ كما قلنا فى مستهل هذا المقال ـ مخالفة التلميذ لأستاذه ، مخالفة تتسم بالحب والتقدير .. كما يختلف الابن مع أبيه ، وهو فى الوقت نفسه يرى أنه هاديه ومرشده .

وكم كان بودنا أن نأتى على الدراسات كلها بالعرض والنقد لولا ضيق المقام، ونأمل أن نعرض لها فى موضع آخر .

عبد الحى دياب

نوابغ

تأليف : قاسم جوده

هذا كتاب قيم ألفه الأديب الصحفى الراحل الأستاذ أحمد قاسم جودة وتحدث فيه عن نوابغ الشباب وهو لايتحدث فيه عن شباب العظماء بل عن عظماء الشباب ، ومعنى هذا أن المؤلف كان محددا فى سيره فلم يتحدث عن العظماء فى شبابهم لأن هذا الحديث يطول بكثرة العظماء فى كل ميدان من ميادين الحياة الثقافية والعلمية والعسكرية وما اليها • انما تحدث فيه عن العظماء الذين اقترن الشباب بحياتهم وبكل ماقدموا من خير ، وبذلوا من جهد او بلغوا من نجاح ، وقد ظلوا حياتهم موسومين بسمة الشباب •

ومن الشخصيات التى تحدث عنها الأستاذ أحمد قاسم جودة فى هـذا الكتاب شخصية الاسكندر المقدونى القائد العظيم وشخصية طرفة ابن العبد الشاعر الشاب القتيل ، وشخصية موتسارت الفنان الموسيقى الكبير، والزعيم الوطنى مصطفى كامل وشاعر الحب والجمال جون كيتس وجان دارك رمز التضحية والايمان ، واندريه شينيه الشاعر العبقرى ونصير الحرية والدستور وجينمر الفارس العتيد الذى نقش اسمه بين اللوحات الرخامية الموجودة فى (البانثيون) بباريس لتخليد ذكرى العظماء •

ومن القصص الطريفة التى رواها المرحوم أحمد قاسم جودة عن الاسكندر المقدونى انه كان منذ شبابه شهما عظيما ، وقد حدث ان تاجرا معروفا من تجار الجياد ، جاء يعرض على فيليب المقدونى والد الاسكندر جوادا محجلا من الجياد النادرة وطلب ثمنا له يتردد بين ما يعادل ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من الجنيهات وهو ثمن غال يدل وحده على ندرة الجواد وجماله ، فلما جيء بالجواد الى الحلبة لتجربته أمام فيليب ظهر من جموحه ماخيب آمال النظارة ، وجعل فيليب يشير باعادته الى صاحبه فما كان من الاسكندر وكان لايزال شابا غض الاهاب ، مفتول العضلات الا ان احتج على رأى والده قائلا : ان من العار أن يضيع جواد بديع كهذا الجواد لا لشىء الا لأنه لا يوجد بين الحاضرين من أوتى من المهارة والشجاعة ما يمكنه من اعتلاء صهوته وكبح جماحه •

وكان الاسكندر فى ذلك الوقت فى الثامنة عشرة من عمره فأشار عليه والده بالسكوت وعدم انتقاد من هم أكبر منه سنا ، غير أن الاسكندر وقف بين الجمع وقال :

— اننى أستطيع بالفعل أن أروض هذا الجواد الذى أعجزكم جميعا •

فضحك فيليب وقال :

— حسن جدا ، اذن فلتحاول ولكن أى جزاء تقترح أن نوقعه عليك لو فشلت فى محاولتك •

فأجاب الاسكندر المقدونى :

— على أن أدفع ثمن الجواد كاملا من مخصصاتي •

وحملق الجميع الى الاسكندر وهو يتقدم الى الحلبة فى شجاعة وتناول عنان الجواد من السائس ثم ادار الجواد بحيث يواجه الشمس اذ خطر له أن من اسباب اضطراب الجواد رؤية خياله يتحرك أمامه على الأرض .

وأمسك الاسكندر بالجواد وربت عليه ، ثم انطلق كالسهم والجميع قد حبسوا أنفاسهم وهم يشاهدون هذا المنظر العجيب •

ولشد ما كانت دهشتهم عندما عاد اليهم الاسكندر وهو منشرح مسرور بعد ما نجح فى تجربة هذا الجواد العنيد ، فاستقبل بهتافات عظيمة شقت اجواء الفضاء ، وغمره والده بالقبلات الأبوية ، وترقب له مستقبلا عظيما فى حكم البلاد •

أما طرفة بن العبد الشاعر الجاهلى المعروف فقد وقف وقفة مشهودة فى شبابه وهى انه لما

الشباب

نص

عرض ونقد: د. جمال الدين الرمادي

[redacted]

مات والده وهو يومئذ صغير لاحظ ان اعمامه يريدون أن يأكلوا اموال والده فما كان من طرفة الا أن أستخدم الشعر وهو صغير فى الدفاع عن حقوق والده ونصرة والدته .

وكان والده من قبيلة بكر أما والدته فكانت من قبيلة تغلب وقد تضمن شعره دفاعا مجيدا عن قبيلة تغلب مما أعاد الى الأذهان الوقائع الدامية التى جرت بين قبيلة بكر وتغلب .

ويعتبر شعره فى الدفاع عن تغلب وهو صغير من اروع الأعمال الأدبية فى الأدب العربى القديم .

وقد انتهى به الأمر الى ان يقتل وهو شاب من اجل دفاعه عن حقوق اسرته وقد سئل الشاعر الفارس لبيد بن ربيعة : من اشعر الناس ؟ فقال : الملك الضليل . ثم قيل : ثم من ؟ قال : الشاب القتيل . ويعنى بذلك طرفة بن العبد .

اما طفل المعجزات موتسارت فقد حكى عنه أحمد قاسم جودة طرائف تدل على براعة هذا الموسيقار العظيم وهو فى سن الشباب بل وهو فى سن الطفولة فقال انه كان فى السادسة عشرة من عمره يلحن مقطوعات لفرق موسيقية كاملة ، وكان يميز الالحان من النوتة دون الاستعانة بأى آلة موسيقية .

وقال : انه عزف على آلة الكمان الثانية المنخفضة الطبقة فى مجمع من اعلام الموسيقى بمنتهى الدقة والضبط .

وفى ١٩ من سبتمبر عام ١٧٦٢ سافرت اسرة موتسارت كلها الى فينا فاحتجزها أسقف لينتس خمسة أيام كاملة فى باسا ولفرط اعجابه بالطفل واخته ، فلما بلغوا فينا كان صيتهم قد سبقهم ولذا نرى الأب يكتب فى خطاب له من فينا :

« ان السيدات فى كل مكان شديدات الاعجاب بولدى ، ونحن الآن حديث المتحدثين فى كل مكان »

ثم ينال الطفل أعلى مراتب الشرف ويقدم الى امبراطور النمسا ، واقبل الامبراطور نفسه الى غرفة الاستقبال واستدعى والده ليسمع الطفل وهو يعزف الكمان كما ارسلت الامبراطورة مع أمين خزانتها الخاص الذى وقف بموكبه امام مسكن أسرة موتسارت ثوبين أحدهما للطفل والاخر للبنت .

وفى ذات ليلة بينما كان الطفل واخته ووالدهما عند الامبراطورة بدت على فولفجانج موتسارت علائم المرض المفاجىء ثم لم يلبث أن ظهر عليه طفح قرمزى ، فبادر الى معالجته احد أطباء فينا المشهورين ولكنه لم يتناول اجره مالا بل موسيقى !

وعندما سافرت أسرة موتسارت الى باريس ظفرت بمجد فنى عظيم واهدى الى فولفجانج حسامان ثمينان احدهما من رئيس اساقفة ميتشلين الكونت فرانكبرج والاخر من الكونت نيراريس ودعيت عائلة موتسارت الى قصر فرساى للعزف أمام الملك ، وقد حدث حينئذ ان امرت مدام دى بمبادور حظية لويس الخامس عشر المشهورة بان يقف الطفل على منضدة خاصة فلما تقدم لتحيتها أدارت له ظهرها وانصرفت عنه . وعندئذ صاح الطفل محنقا :

من هذه التى لا تريد ان تقبلنى ؟ لقد قبلتنى الامبراطورة نفسها من قبل !

وكان النجاح رائد الطفل العبقرى فى هذه الرحلة فعزف أمام الاسرة المالكة وعزف على الارغن بالكنيسة فى حفلة حضرها كبار القوم ونشرت اولى مؤلفات موتسارت الطفل وهى فرديات أربع على البيان مع متابعة الكمان ، وقد اهديت منها ائنتان لمدام فيكتوار ابنة الملك والثانية لكونتس تيسيه .

ويصف ليوبولد موتسارت والد الطفل

الموسيقار النابغة حفاوة الاسرة المالكة به وبطفليه فيقول فى احدى خطاباته :

«على ان اشد ما ادهش الحاضرين هو انه فى مأدبة العشـــاء التى أقيمت ليـــلة رأس السنة افسح لنا وحدنا الطريق الى المائدة الملكة حيث كان للاستاذ فولفجانج شرف الوقوف على قوته من الملكة ومحادثتها وتسليتها بغير انقطاع وكان يأكل تارة مما تقدمه له الملكة من المائدة وتارة يقبل يدها ! »

وعندما كبر موتسارت انتـــابه كثير من الكوارث وغرق فى كثير من الديون حتى اصبح مضغة للأفواه فى قصر الامبراطور جوزيف الذى قال له ذات يوم :

ـ لماذا لا تتزوج امرأة غنية يا موتسارت ؟

فاجاب ـ مولاى اننى اعتقـــد ان عبقريتى ستمكننى دائما من الانفاق على المرأة التى احبها !

وقد اخرج موتسارت روائع القطع الموسيقية الخالدة ، وفى عام ١٧٩١ بينما كان يلحن الاوبرا الخالدة (الناى الساحر Zanberflöte) اصـــيب باعراض كانت نذيرا بانحـــلال قواه واشرافه على النهاية فقـــد كانت تعتريه من وقت لآخر فى أثناء دأبه على التلحين ليل نهـار نوبات متوالية من الاغماء والهزال حتى اضطر فى شهر يونيو من هذا العام ان يعتكف مؤقتا عن التلحين ويقوم برحلة قصيرة الى بادن انتجاعا للصحة ثم عاد واتم هذه الاوبرا فى شهر يونيو ولكنه ادخل عليها بعض التعديل والتهذيب قبل تمثيلها فى اخر سبتمبر .

وعـــاد موتســـارت الى فينا حيث عكف على وضع لحن حزين ، وكان قد استولت عليـــه حال من الكآبة أقضت مضجع زوجته وأقلقت أصدقاءه اذا اعتقد ان خصومه قد جرعوه السم وانه يشرف على نهاية مصيره وحاولت زوجته صرفه عن هذه الافكار السوداء غير انه قال :

ـ لا . . لا اننى أشد مايمكن اقتناعا بأنى لن أعيش طويلا . لقد سمموني بغير شك وليس فى الامكان ان اتخلص من هذا الاعتقاد .

وفى ليلة ٥ ديســـمبر ١٧٩١ القى نظرته الاخيرة على اللحن الحزين ثم قال وهـــو يطبق جفونه على دموعه المترقرقة فى عينيه :

ـ ألم أقل لكم أننى كنت أكتب هذا لنفسى ؟!

ثم دفن موتســارت فى احـدى مقـــابر فينا وانطوت حياة هذا الفنان العبقرى العظيم الذى بهرنا الاستاذ احمد قاسم جودة بسيرته كمـــا بهرنا بسير عظيم من نوابغ الشباب .

أما مصطفى كامل فقد القى عليه الاســـتاذ احمد قاسم جودة اضواء باهرة ابرزت بطولتـــه ونبوغه ، وشجاعته واقدامه وهو لا يزال يدرس فى المدرسة فقد كان يتعلم فى مدرســـة القرية التى تقرب من منزل جده لامه وقد تسلم فى هذه المدرسة جائزة الامتحان فى احتفال كبير حضره الخديوى توفيق .

وقد حدثت محاورة بين الخـــديوى وبين الطالب مصطفى كامل تدل على رباطة جأشـــه وثبات نفسه وقوة عزيمته .

فقد سأله الخديوى : ما اسمك يابنى ؟

فأجاب مصطفى كامل فى ثبات شديد : اسمى مصطفى كامل

ولم يشأ مصطفى كامل طالب المدرســـة الابتدائية فى ذلك الوقت ان يقول : عبدك مصطفى كامل ، بل انه لم يحفل لتنبيه ضابط المدرســـة همسا اليه وعندما سأله الخديوى عن اسم والده لم يتبع سياسة ضابط المدرسة فى الخضـــوع

والخنوع انما قال فى بساطة وشجاعة : المرحوم على محمد .

فلما انفض الاحتفال توجه مصطفى كامل الى الضابط وقال له فى كبرياء وشمم :

ـ ما كان ابى عبدا ، وما كنت انا كذلك فاذا اجبت بغير الواقع كما كنت تريد ان افعل كنت كذابا .

وعندما صدر قرار من وزارة المعارف بمنع التلاميذ من المشاركة فى المطالبة بالأمانى الوطنية لم يثنه هذا القرار عن مبدئه ، ففى اواخر عام ١٨٩٤ قصد الى مدينة « تولوز » حيث نال اجازة الحقوق فكتب الى اخيه يقول :

« عولت بمشيئة الله على الانتظام فى سلك رجال المحاماة لأدافع عن حقوق الأفراد ، ولو أتيح لى الخير ، وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع لأن مصر وهى جنة الدنيا لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ، ونصبح فيها نحن أبناءها الأعزاء ممقوتين غرباء » .

وفى ٢١ مارس عام ١٨٩٥ قدم مصر النائب الفرنسى « مسيو دلونكل » للاجتماع برجال مصر الوطنيين ودرس الحالة الاجتماعية والسياسية بمصر ، فاستقبله مصطفى كامل بالاسكندرية ورافقه طوال العشرين يوما التى قضاها بمصر ، فكان لهذه الزيارة وحركات مصطفى كامل خلالها وقع أليم فى نفوس المحتلين .

وفى أوائل شهر مايو من العام نفسه سافر مصطفى كامل فجأة الى باريس وقد قال لأخيه حين أبدى دهشته لنبأ هذا العزم المفاجىء على السفر « أنسيت المسألة المصرية ؛ تلك المسألة التى استخرت الله أن أكون المدافع عنها ؛ لقد زودت نفسى فى المدة الماضية بمعلومات جمة عنها وطالعت كتبا كثيرة رسمية وغير رسمية ووقفت على كل أسرار بلادنا السياسية فلا تدهش يا أخى فان هذا الطريق ولو أنه وعر المسالك مطلوب من كل وطنى صادق » .

ولم يكد يبلغ باريس حتى أرسل الى أخيه على فهمى كامل يقول « لقد أوصيت على صورة سياسية تمثيلية لأقدمها مع عريضة سياسية لمجلس النواب الفرنسى ، وسأجتهد فى أن يكون الموقعون على هذه العريضة من أبناء مصر كثيرين حتى يكون لها فى العالم دوى كبير وتأثير عظيم » .

وقد تحقق ماكان يجيش فى صدر مصطفى كامل بهذا الصدد من آمال فقد قصد الى مجلس النواب الفرنسى فى ٤ يونيو ومعه ستة من اخوانه المصريين المقيمين بباريس ، وقدم الى رئيس المجلس عريضة استغاثة من الأمة المصرية بالأمة الفرنسية . وفى العريضة اشارة الى الصورة الرمزية التى سبقت الاشارة اليها وقد تسلمها منه سكرتير المجلس وفى تلك الصورة فتاة حسناء تمثل فرنسا مصغية لاستغاثة الملهوف ، وقد مدت يدها تتناول من يد المصرى شكاية أمته الممثلة بفتاة تستغيث وهى مكبلة بأغلال غلاظ مربوطة بمخالب أسد رابض يقف الى جانبه رجل هائل الصورة قابض على سيفه ناظر الى مصر شزرا كأنما يريد التهامها ، وكان ذلك رمزا للاستبداد المفروض على مصر ، وفى أسفل الصورة أبيات بالعربية من نظم مصطفى كامل وأمامها ترجمتها بالفرنسية وهذه هى الأبيات :

أفرنسا يا من رفعت البلايا
عن شعوب تهزها ذكراك
انصري مصر ان مصر بسوء
واحفظى النيل مهاوى الهلاك
وانشرى فى الورى الحقائق حتى
تجتلى الخير أمة تهواك

وبالطبع كان مصطفى كامل مضطرا الى هذه الاستغاثة لما كانت فيه مصر من ضعف شامل فى شتى مرافق الحياة ، وسرى فى الجيش الذى غدا أعزل من السلاح وليس له معين فى هذه الطاقة الكبرى التى حلت بالبلاد من جراء الاحتلال واستخدام وسائل العنف والارهاب وفصل الجيش عن الشعب وعزل الشعب عن المطالبة بحقوقه المشروعة فى الحرية والاستقلال .

غير ان مصطفى كامل الهب الشعور الوطنى وأثارت هذه الخطوة اهتماما عظيما فى أنحاء العالم وهاج هائج الصحف البريطانية حتى خرجت احداها عن صوابها فكتبت تقول « ظهر بين المصريين رجل مهيج يدعى أنه مصرى والحقيقة أنه تركى وقد كان أبوه موظفا فى سراى الخديويين

المصريين وقد قـدم هذا المهيج المغرور استنجادا لفرنسا من الاحتلال ونسى ماعليه انجلترا من القوة والحق فى احتلال مصر ـ فالرأى العام الانجليزى لا يلتفت لهذا الهذيان الذى يدل على أن يدا كبيرة تحركه ضد انجلترا صاحبة الحول والطول » ٠

ولكن مصطفى كامل رغم هذه الثورة العارمة التى استقبل بهـا من جانب الموتورين صادف تشجيعا عظيما وتقديرا كبيرا من جانب كثير من الوطنيين ونذكر منهم الدكتور هوفمـان زنيفر رئيس الحزب الالمانى الشمالى الذى سجل اعجابه بمصطفى كامل فى خطابه المؤرخ بتاريخ ١٨نوفمبر ١٨٩٦ ٠ انى قرأت أعمالك الأخيرة وتتبعت كل خطواتك السياسيةدفاعا عن بلدك العزيز فوجدتها لم تصدر الا عن وطنى مخلص ذكى نشـيط ، فأهنئك بهذه الدرجة التى تدهش كل من وقف عليها وعرف أن سنك هى سنك وكانت سنه فى ذلك الوقت تبلغ اثنين وعشرين سنة ٠

وكتب اليه أحد النواب الايطاليين المشاهير « انك بأعمالك تلفت العالم من جديد الى تاريخ مصر القديم والجديد ، وتعيد ذكرى الفراعنة الذين لبسوا قبل بنى البشر تاج العلم ودخلوا منه الصناعة ! انك لا تقل فى نظرى عن اوربى ذى راس كبير محنك وربما فضلته بنشـاطك الفائق الذى لا يقل عن نشاط التجار ، فمن باريس نسمعك وكذلك من برلين وفينا والاستانة تذكر بلادك حتى خيل لنا أن العالم كله معك فلا تحرم ايطاليا من زيارتك فان الاحرار على الدوام يحبـون رؤية الاحـرار من أى جنس كانوا ! ٠٠ »

وعندماقابل مصطفى كامل السلطان عبد الحميد للمرة الاولى كان أول ما قاله السلطان حين رأى مصطفى كامل : انى كنت أظنك رجلا مسنا ولكنك لا تزال فى حداثة العمر فبارك الله فيك !

ولما أراد السلطان بعد أيام أن يمنحـه بعض الرتب والنياشين اعتذر قائلا : ان وطنيتى خالصة لا تبتغى أجرا ولا تسأل فخرا ، وقد خشى أن تروج بضاعة الأعداء ضده « ويتهمنى أبناء وطنى العزيز بالعمل حبا فى الظهور ونيل هذه الالقاب الكاذبة ! » ٠

وهكذا ظل مصطفى كامل لا يحمل رتبة حتى أنعم عليه السلطان عام ١٨٩٩ برتبة المتمايز ثم بالرتبة الاولى ثم برتبة الباشوية بعد بضـع سنوات وهو زاهد كل الزهد فى هذه الألقاب ٠

أما الشاعر الانجليزى « جون كيتس » فقـد اعتبره أحمد قاسم جودة من عباقرة القراء من الشباب ، فقد بلغ قمة مجده الادبى ثم رحل عن الدنيا وهو فى الرابعة والعشرين من عمره حتى أن الناقد « روبرت بريدجز » يقول عنه :

« لو استطعنا اليـوم أن ندعو من عالم الموت شاعرا انجليزيا واحدا ليتم ما تركه من عمـل عظيم لوضعت انجلترا تاج اختيارها على الشاعر جون كيتس » ٠

وقد حاول كيتس منذ نعومة اظفاره أن يثقف نفسه ثقافة واسعة ، وعكف على ترجمة فرجيل الشاعر الرومانى وغيره من شعراء الرومان الى الانجليزية فى أوقات فراغه ولقد كان أسـتاذه يدفعه برغم انفه فى كثير من الاحيان الى مغادرة غرفته التماسا للهواء الطلق فكان كيتس يأبى الا أن يتناول فى يده كتابا يطالعه فى أثناء نزهته ٠

وقد درس كيتس وهو فى سن مبكرة اللاتينية

واليونانية ثم قرأ الى جانب ذلك قصة روبنسن كروزو وبدأ يغترف من منهل شكسبير العظيم ، وليس ادل على مبلغ الخصب فى خياله من قوله لأحد الزملاء فى المدرسة اذ ذاك :

« انني أعتقد أن أحدا من الناس لا يجرؤ على مطالعة « ماكبث » وهو وحيد فى المنزل عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل » .

وهذا يدلنا دلالة قاطعة على أن كيتس كان يمتزج بما يقرأ ، ولم تكن قراءته للنصوص الادبية قراءة عابرة سطحية انما كانت قراءة جادة فيها تفكير وشعور وأعمال للعقل وتهذيب للاحساس والخيال . ولعل ذلك هو السر فى رومانسيته الحالمة وقصائده الشعرية التى تسيل رقة وعذوبة ، وحلاوة وطلاوة وجمالا ..

وقد وضح أحمد قاسم جودة فى كتابه ذلك المعنى الرفيع الذى استهدف اليه كيتس حين قال : الحق هو الجمال والجمال هو الحق كما لخص حياته الحافلة فى تلك الأبيات الرقيقة التى تغنى بها الشاعر العربى القديم :

وارحمتاه للغريب فى البلد النا
زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا
بالعيش من بعده وما انتفعا

وكأنما ينظر كيتس عبر المجهول ويتطلع الى علو ذكره وارتفاع اسمه وهو يقول فى خطاب الى أخيه جورج فى ٢٩ أكتوبر عام ١٨١٨ :

« أعتقد أننى سأصبح بعد موتى فى عداد الشعراء الانجليز ، وأما محاولة هدمى فى جريدة (كوارترلى) فلم تثمر سوى زيادة الاهتمام بأمرى وذيوع شأنى ، وليس مما يضيرنى فى المجتمع أن يحاول أحد تصغير شأنى والسخرية منى ، فأنا أعرف مقام الرجل الذى يفضلنى وأوليه مايستحق من تبجيل ، وبذلك أجعله آخر من يضحك منى » .

وقد صور أحمد قاسم جودة تلك الآلام الدفينة التى هصرت عود هذا الشاعر العبقرى حتى فاضت روحه الى بارئها فى ٢٣ فبراير عام ١٨٢١ ومضى الى خلود الأبدية .

***

هذه نماذج مختلفة مما تضمنه كتاب « نوابغ الشباب » للصحفى الفقيد الأستاذ أحمد قاسم جودة وهى تدل على أن السير التى تناولها جديرة بالتقدير والدراسة من جانب الشباب وداعية الى النظر والتأمل واتخاذها اسوة حسنة ومثلا أعلى . هذا وقد أشار المؤلف الى نوابغ آخرين من الشباب منهم نابليون الذى بدأ يقود القوات الفرنسية وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ورمسيس الثانى الذى قاد الجيوش المصرية فى سن لا تكاد تقبل التصديق وهى سن العاشرة ولورد بيرون الذى كتب أولى رواياته وهو فى الخامسة عشرة من عمره وفولتير الكاتب الحر الذى دخل سجن الباستيل وهو فى العشرين من عمره بسبب آرائه الجريئة وأفكاره الحرة ودعوته الثورية المتجددة ، وجيته الكاتب الألمانى الذى كان يكتب بالألمانية والفرنسية والايطالية واللاتينية واليونانية قبل أن يبلغ الثامنة .

وهكذا كان الكتاب دليلا ممتعا ، وترجمة رائعة لنوابغ الشباب لأديب صحفى عرف النبوغ فى ميدان الصحافة وهو شاب فى عنفوان الشباب .

دكتور جمال الدين الرمادى

أخبار الكتاب العربى فى العالم

يقدمه مدير التحرير

● كنت قد أشرت فى العدد الخامس والعشرين من هذه المجلة الصادر فى شهر يونية سنة ١٩٦٦ الى جهود « **وزارة الثقافة والارشاد القومى** » فى **الجمهورية السورية الشقيقة** حتى استطاعت أن تخرج أكثر من مائة وثلاثين كتابا فى مختلف فروع المعرفة فى فترة وجيزة .

وأشرت فى هذه الكلمة الى سلسلة من بين السلاسل المنوعة التى تنشرها ، هى سلسلة «**الكتب القومية**» التى توخت فى نشرها سد ثغرة فى مكتبة الفكر القومى والاشتراكى تقدم فيها الى المواطن العربى البحوث التى تمس أهم شئونه ومرافقه ومشاغله الفكرية والقومية ، ولتعمل على توعية جماهير الشعب العربى ، واختارت لهذا الهدف عددا من الموضوعات العامة كلفت بها طائفة من العلماء يعالجونها فى وضوح ويسر ، بدأتها بكتاب « **التسيير الذاتى** » للدكتور صلاح وزان ، درس فيه المؤلف تجربة التسيير الذاتى اليوغوسلافية وتناولها بالتفصيل فى النطاق العمالى والاجتماعى والزراعى ثم نظر فى تقويمها واستدلال نتائجها ، وأشار الى بعض التدابير الضرورية لحماية القطاع الصناعى المسير ذاتيا فى سورية والعمل على انجاحه .

ثم تابعت الوزارة نشر البحوث المختلفة بعد ذلك حتى صدر منها : « **التخطيط الاشتراكى** » للدكتور عبد الله عبدالدايم ، و « **المغتربون العرب فى أمريكا الشمالية** » للدكتور جورج طعمة ، و « **القومية العربية فى القرن التاسع عشر** » للدكتور توفيق برو ، و «**الفن والقومية**» للدكتور عفيفى بهنسى ، و «**الموقع الاستراتيجى العربى**» للاستاذ هيثم الكيلانى ، و «**الاشتراكية فى البلدان المختلفة**» للأستاذ محمد الجندى ، و « **التحويل الاشتراكى الزراعى فى سورية** » للأستاذ أحمد محمد الزعبى .

● وفى الحقل الأدبى نشرت هذه الوزارة كتاب «**الأسطورة اليونانية**» الذى ألفه الأب فؤاد جرجى بربارة ، وهو متخصص فى الأدب اليونانى ، متعمق فى دراساته ، وقد اقتبس كتابه عن هوميروس وهيزيدس وغيرهما ممن عاشوا هذه الاسطورة وعبروا عنها .

والأسطورة اليونانية ، كانت ولم تزل معينا لا ينضب للشعراء والأدباء لما فيها من جمال وفن وسعة أفق .

وقد عرض الأب فؤاد بربارة الأسطورة اليونانية فى نشوئها ، لا فى الزمان ، فالأسطورة تروى الزمان على طريقتها ولكن فى نظامها الذاتى ، كما

تروى قصة نشوء الكون والانسان والتاريخ وقصة القوى الطبيعية ومافوق الطبيعية التى أسهمت فى هذا النشوء ·

● وفى الأدب المسرحى نشرت الوزارة أيضا ترجمات لثلاث مسرحيات عالمية :

الأولى : مسرحية «**سيدة الفجر**» لعلم من اعلام المسرح فى الأدب الاسبانى الحديث هو « الخاندرو كاسونا » المتوفى عام ١٩٦٤ · وهى من أشهر مسرحياته ، عرض فيها مشكلة الموت عرضا تشيع فيه روح التفاؤل ، وتشرق فيه ابتسامة الامل الانسانى الجميل · وقد نقلها الى العربية الاستاذ على الأشقر ، وراجع الترجمة الدكتور خالد الصوفى ·

والثانية : مسرحية أخرى لأحد كبار الكتاب المسرحيين الاسبان القدامى هو « كالدرون دى لا باركه » المتوفى عام ١٦٨١ · والمسرحية هى «**الحياة حلم**» ، وفكرتها الأساسية ان الحياة حلم ، وأن هذا العالم كله ليس الا وهما لا يعدو فى تكوينه سراب حواسنا وهوى الساعة · وهى من تعريب الأستاذ نجاة قصاب حسن ، ومراجعة الدكتور جودة الركابى ·

والثالثة : هى المسرحية الساخرة « **البقة** » لأحد كبار الشعراء فى الاتحاد السوفيتى ، وهو « فلاديمير ماياكوفسكى » المتوفى عام ١٩٣٠ ، وفى هذه المسرحية سخرية من تصور الطبقات الشعبية فى المجتمع الروسى اذ ذاك للنظام الاشتراكى الأمثل ، وتأكيد على أن العواطف الانسانية الأساسية كالحب ، ستتبدل شروط وجودها لاحقيقتها العميقة · وهى من تعريب الأستاذ عماد حاتم ·

● وفى المشروع الضخم الذى نهضت به « **مكتبة المثنى** » فى القطر الشقيق «**العراق**» · وهو اعادة طبع ذخائر التراث العربى بالأوفست عن الطبعات الأوروبية التى نشرها المستشرقون ليسهل على الباحثين الحصول على هذه الطبعات النادرة ، نشرت هذه الدار كتاب « **النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية** » للقاضى أبى محمد عمارة بن أبى الحسن الحكمى اليمنى الذى حضر الى مصر سنة ٥٥٠ هـ فى خلافة الفائز بن الظافر الفاطمى ووزيره الصالح بن رزيك برسالة من القاسم بن هاشم صاحب مكة · ثم عاد الى مصر وأقام بها الى أن قتله صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٩ هـ · وقد تضمن هذا الكتاب ما رواه عمارة عن نفسه وعن الوزراء الذين لقيهم وهم الصالح وشاور والكامل وروى أشعارهم · وكان المستشرق الفرنسى « هرتويغ درنبرغ » المتوفى سنة ١٩٠٨ قد طبعه فى مدينة « شالون » سنة ١٨٩٧ مع ديوان شعر عمارة اليمنى · وعن هذه الطبعة نشرته « مكتبة المثنى » ·

***

● كما نشرت للفقيه الحنفى أبى عبد الله محمد بن الحسن الشيبانى الذى ولد فى « واسط » بالعراق سنة ١٣١ هـ وتوفى فى « الرى » سنة ١٨٩ هـ وهو فى صحبة الخليفة هارون الرشيد حين خرج الى خراسان ، وقد قال الشافعى فيه : « لو أشاء أن أقول : نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن ، لقلت : لفصاحته » ـ أحد كتبه فى الفقه وهو كتاب « **المخارج فى الحيل** » عن الطبعة التى نشرها فى « ليبسك » سنة ١٩٣٠ المستشرق الألمانى « جوزيف شاخت » المولود سنة ١٩٠٢ وكان أحد أساتذة « الجامعة المصرية » سنة ١٩٣٤ ·

● وعلى ذكر كتاب «المخارج فى الحيل» لمحمد بن الحسن الشيبانى ، نذكر أن المجلس الأعلى للشئون الاسلامية يقوم بطبع كتاب « **الموطأ** » للامام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ برواية الشيبانى الحنفى المذهب ، وتعتبر هذه الرواية أول كتاب فى الفقه المقارن حيث رد فيه على ما يخالف رأى الامام مالك برأى الامام ابى حنيفة ·

وسيظهر الكتاب فى مجلدين بتحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف أستاذ الحديث بكلية الشريعة ·

***

وقد عنى الأستاذ كوركيس عواد فى الطبعة الثانية باضافة تعليقات جديدة ، وقوم ماكان فى حاجة الى تقويم ، ونشرته المكتبة فى حلة أبهى من حلته الأولى .

وقد ذكرنا ان هذا الكتاب يعد من أهم المراجع البلدانية والتاريخية والأدبية ، فهو يذكر أمكنة وبقاعا كثيرة أغفلتها المراجع الأخرى ، وحوى أخبارا يتفرد بها ، وروى أشعارا لم تظهر فى دواوين بعض الشعراء الذين ذكرهم مثل كشاجم وابن المعتز وأبى نواس والصنوبرى وغيرهم .



● وفى العدد الصادر فى يوليه سنة ١٩٦٦ أشرت أيضا الى أن كتاب « **الشعر والشعراء** » لابن قتيبة أبى محمد عبد الله بن مسلم المتوفى عام ٢٧٦ هـ قد قامت «دار المعارف» بنشر طبعة جديدة أنيقة عنيت أسرة المرحوم العالم المحدث الشيخ أحمد محمد شاكر الذى حقق هذا الكتاب باخراجها بعد أن نفدت الطبعة الأولى التى نشرها بين سنتى ١٣٦٤ - ١٣٦٩ هـ (١٩٤٥ - ١٩٥٠ م) محققة تحقيقا علميا دقيقا ، وقد أشير فى هوامشها الى الى المراجع المتعددة التى تناولت حياة من ذكرهم ابن قتيبة من الشعراء مع تخريج الأبيات التى ذكرها لهم وشرحها .

وقد صدر أخيرا الجزء الثانى من هذا الكتاب فى طبعته الأنيقة حيث كان الأستاذ المحقق قد رأى - وهو يعد الطبعة الجديدة - أن يقسم الكتاب الى فقرات بأرقام متتابعة لتسهل الاشارة الى مواضع النصوص فيه بذكر الفقرة ، دون التقيد بأرقام الصحيفة فى طبعات تتعدد وتختلف فيها الصفحات .

● ونشرت هذه الدار أيضا الطبعة الثانية لكتاب « **الديارات** » الذى ألفه أبو الحسن على بن محمد المعروف بالشابشتى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ بتحقيق الأستاذ كوركيس عواد عضو المجمع العلمى العراقى .

وكنت قد أشرت فى العدد السابع والعشرين من هذه المجلة الصادر فى شهر يولية سنة ١٩٦٦ الى أن «مكتبة المثنى» تقوم باعادة نشره فى طبعة جديدة بعد أن نفدت طبعته الأولى التى نشرت سنة ١٩٥١ .

● أما كتاب « **قصص القرآن** » الذى اشترك فى تأليفه الأساتذة : محمد جاد المولى ، ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، وعلى البجاوى ، والسيد شحاته ، فقد نشرت «المكتبة التجارية» بالقاهرة الطبعة التاسعة منه . وهذا دليل على قيمة الكتاب وفائدته ، وما لقى من تقدير واهتمام .

وقد اعتمد مؤلفو هذا الكتاب فى وضعه على القرآن الكريم وكتب التفسير والقرآن ، وتناولوا القصص الواردة فى الكتاب الحكيم عن الأنبياء والرسل ، أو أخبار الأمم ، أو الأحداث التاريخية ليبسطوا مواطن العبرة ، دون أن يدخلوا فى التفصيلات .

● تكلمت فى العدد الماضى عن كتابين قام بتحقيقهما الدكتور عبد العزيز مطر المدرس بكلية البنات بجامعة عين شمس ، وهما : « **تثقيف اللسان وتلقيح الجنان** » لابن مكى الصقلى المتوفى سنة ٥٠١ هـ ، وهو فى لحن عامة صقلية فى القرن الخامس الهجرى ، و «**تقويم اللسان**» لابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وهو فى لحن عامة بغداد فى القرن السادس الهجرى .

وهذان الكتابان ، لهما أخ ثالث ، قام الدكتور مطر بتحقيقه ، ويطبع الآن فى « مدريد » وهو كتاب « **لحن العامة** » لأبى بكر الزبيدى الاشبيلى المتوفى سنة ٣٧٩ هـ وهو فى لحن عامة الأندلس فى القرن الرابع الهجرى .

وهذه الكتب الثلاثة التى تناولت اللحن فى

المشرق والمغرب كانت موضوع دراسة حصل بها الدكتور عبدالعزيز مطر على الدكتوراه فى علم اللغة بمرتبة الشرف الأولى من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٩٦٤ ·

وموضوع اللحن نوع من التأليف فى اللغة العربية ، وهو الخطأ فى اللغة : أصواتها ، أو نحوها أو صرفها ، أو معانى مفرداتها ، وتقوم كتب اللغة على ايراد كلمات أو صيغ ، والحكم بأنها لحن أو خطأ أو غلط تقوله العامة – وهم المثقفون الذين تسربت اليهم أخطاء من الدهماء أو من تصحيفات النساخ ، ومن بين هؤلاء شعراء وكتاب – وذلك على حد تعريف الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى · ثم تذكر هذه الكتب الصواب الذين يجب احلاله محل الاستعمال الخاطىء ·

وقد نشرت أخيرا « **دار الكاتب العربى للطباعة والنشر** » فى سلسلة « المكتبة العربية » التى تصدرها وزارة الثقافة بالاشتراك مع المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية جزءا من الدراسة التى حصل بها الدكتور مطر على هذه الدرجة العلمية وهى «**لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة**» · أما عنوان الرسالة فهو « مخطوطات التصويب اللغوى للزبيدى وابن مكى وابن الجوزى : تحقيق ودراسة » ·

وهذا الكتاب هو القسم الثانى من هذه الرسالة الجامعية ، كما أن الكتب التى حققها هى القسم الاول منها ، وهو دراسة مؤسسة على المادة التى حققها فى هذه الكتب ، وتضم ثلاثة أبواب : باب يمهد بتحديد المفهومات واستقراء ما كتب فى الموضوع ، وباب يتناول الكتب الثلاثة بالوصف والنقد واستخلاص الحقائق ، والثالث يقيم على المادة التى تضمها هذه الكتب درسا جديدا ·

وقد تناول فى هذه الدراسة المقاييس التى يجرى على أساسها الحكم بالصواب والخطأ فى اللغة ، وبخاصة عند مؤلفى كتب اللحن ، وقد استنبط الباحث المقاييس الصوابية من أقوال هؤلاء ، ومن المادة التى عرضوها فى كتبهم ، وحدد مواقفهم بين التشدد بتخطئة غير الأفصح ، والتساهل بقبول كل ما جاءت به لهجة عربية ، أو جرى على أحد أقيسة العرب ·

واهتم الدكتور مطر بعرض آراء اللغويين المحدثين فى مقياس الصواب اللغوى ، والنظرة فى ضوئها الى آراء القدماء ، وتحديد الموقف من هذه القضية ·

وفى خلال هذا البحث قدم للقارىء تعريفا بكتب اللحن ، وعرض نماذج من كل منها ، ثم حاول جمع ما استطاع من نصوص الكتب المفقودة وذلك من بطون الكتب لتكون نواة يستدل منها على منهج المؤلف ·



● مازالت «مى» الكاتبة الشاعرة موضع الاهتمام والدرس منذ فارقت هذا العالم فى سنة ١٩٤١ ذلك انها كما قال استاذنا عميد الادب العربى الدكتور طه حسين « ظهرت فى حياتها الادبية بمظهرين مختلفين أشد الاختلاف، وأثرت بهذين المظهرين نفسهما فى الحياة الادبية العربية تأثيرا عميقا جدا ، ظهرت بعض صوره أثناء حياة « مى » وستظهر بعض صوره الاخرى بعد وفاتها بزمن قصير أو طويل · فأما أول هذين المظهرين فهو مظهر الأديبة المبرزة التى لا تحتجب ولا تستخفى ولا تلقى الرجال عند المناسبات وحين تقتضى الظروف لقاءهم ، وانما تنظم الاجتماعات الأدبية التى يشترك فيها الرجال والنساء اشتراكا حرا سمحا فيه كثير جدا من الرقى والامتياز·· أما المظهر الثانى الذى أشرت اليه فهو مظهر مى التى آثرت الوحدة ، وألحت على نفسها فى العزلة ·· هذه العزلة التى آثرتها مى فى آخر حياتها لم يقتصر أثرها على مى وحدها ، وقد ذاقت مى مرارتها ، وبلت آلامها ، ولكن الناس كانوا يعرفون ما كانت تحتمل فيها من الالم ، وكانوا يألمون لها ، ويضيقون بها ، ولكنهم كانوا يفكرون فيها ويلتمسون لها ألوان العلل فى حياة مى العقلية وفى المثل الادبية التى كانت تنظر فيها مى كثيرا » ·

فلقد ظهر عن « مى » كتاب للاستاذ **محمد عبد الغنى حسن** — وهو أول من اهتم بوضع كتاب عنها بعد وفاتها ضمن شطرا منه أحاديث ادارها مع طائفة من أساتذة مى وأصدقائها ورواد ندوتها الادبية ، ومن بينها حديثه مع الدكتور طه حسين الذى اقتطفنا منه هذه العبارات • ثم أعاد الاستاذ محمد عبد الغنى حسن تجديد كتابه بدراسات ونماذج من أدب مى ، ونشره منذ عامين •

واليوم تبدأ أديبة سورية الكبيرة السيدة **وداد سكاكينى** بتقديم كتاب جديد للمطبعة عن « **مى** » درست فيه حياة راهبة الادب والفكر من مختلف الجوانب ، وتناولت بالدراسة كذلك آثار هذه الاديبة الكبيرة • مدعمة دراساتها بكثير من الوثائق •

وترى السيدة وداد سكاكينى أن **ميا** قد مثلت فى أدبها انسانية المرأة وحنانها وأشواقها • وقد كتبت القصة والرسالة وألفت الدراسة الأدبية وألقت المحاضرات عدت من رواد الفكر والادب فى نهضتنا المعاصرة ، اذ تلاقت مع هؤلاء فى النزعة الانسانية التى ظهرت فى مؤلفاتهم واتجاههم •

وترى أن أسلوبها كان نسيج وحده ، فقد أبدعته من عند نفسها وسليقتها ، ما قلدت فيه أديبا أو خطيبا ، فكان تعبيرها عن شعورها وتفكيرها يشف عنذوقها وفنها ويدل محتواه على تجاوبها مع الحياة والمجتمع الذى عاشت فيه •

ونذكر هنا أن من بين الدراسات التى كتبت عن مى المحاضرات التى ألقاها المرحوم الدكتور منصور فهمى فى معهد الدراسات العليا بجامعة الدول العربية ، والكتب الثلاثة التى ألفها الاستاذ جميل جبر ، وهى : « مى فى حياتها المضطربة » ، «رسائل مى الىجبران» ، «رسائلجبران الى مى» •

وكذلك ما كتبه الاستاذان عبد اللطيف شرارة وطاهر الطناحى ، والدكتورة عاتكة الخزرجى •

● فقدت مصر والعالم العربى عالما جليلا من علماء الآثار الاسلامية ، بنى نفسه بيده كما يريد الفنان أن يقيم أثرا يبهر الناظر ويملك عليه اعجابه ، ونهض بمجده العلمى كالمئذنة عاليا فى غير شموخ وزهو يبعث فىالنفس بتواضعه الجم ما تبعث المئذنة فى النفس منجلال وخشوع ومثل رفيعة •• هذا العالم الجليل الذى فقدناه هو **المرحوم الاستاذ حسن عبد الوهاب** الذى شغل عن جدارة زمنا طويلا منصب « كبير مفتشى الآثار الاسلامية » • رحمه الله بقدر ما أحسن الى أمته العربية بعلمه واكتشافاته ، وبقدر ما خلف فى نفوس محبيه وعارفى فضله فى العالم الاسلامى من حزن وأسى الى جانب ما تحمل له هذه النفوس من محبة وتقدير •

ولا يعزينا عن خسارتنا فيه الا ما ترك من آثار فنية رائعة جديرة بأن تلقى من الهيئات العلمية من اهتمام باعادة نشرها لتكون بين أيدى الباحثين ميسرة فى كتب معدودة عوضا عن تناثرها فى مجلات وصحف •

وأوجه الرجاء الى **وزارة الثقافة** لتعمل علىطبع ما نشره العالم الفقيد من بحوث مثل « **تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها** » و « **الرسومات الهندسية للعمارة الاسلامية** » وغيرها من المقالات والمحاضرات فى كتاب أو كتابين •

كما أوجه الرجاء الى **المجلس الاعلى للشئون الاسلامية** ليعيد النظر فى كتابه القيم « **تاريخ المساجد الاثرية** » فينشر خلاصته الفنية ، فهو الى جانب القيمة التى احتواها يعتبر تحفة فنية جديرة بأن تنشر على الناس •

وليس هناك من هو أجدر من هاتين الهيئتين

الكبيرتين بالقيام بهذا الواجب أمام ذكرى عضو بارز من أعضاء لجانهما ، وليس هناك من هو أقدر منهما على اخراج هذه الآثار فى مثل الروعة التى يجب أن تظهر فيها ٠

● من بين المستشرقين الذين كان لى حظ اللقاء معهم فى الشهر الاخير المستشرق هـ ٠ **تيفيلايت** Tweleit رئيس دار النشر Aufbau فى برلين وفيمار ٠ وهو يهتم بصفة خاصة بصلة العرب بأسبانيا وأثر الحضارتين الاسلامية والاسبانية فى بعضهما ، ويعتبر هذا الأثر دليلا على التفاهم بين الشعوب العربية والأوروبية ٠ واهتمام المستشرقين الالمان بالثقافة العربية قديم ٠ فقد كان الشاعر « جوته » باعث هذا الاهتمام ٠ ودراسة الدكتور **فك** عن العربية فى صدر الدراسات القيمة٠ ويقول الاستاذ تيفيلايت ان جمهورية الالمانية الديمقراطية تعمل على تفهم الشعوب العربية من واقع ترجمة أدبهم ٠ وأن الترجمة للأدب العربى القديم تسير فى طريقها كما كان ينهض بها المسشرقون القدامى ، مع اهتمام بالادب العربى الحديث ويهتم القارىء الالمانى بمعرفة الفرق بين الرعيل الاول من الادباء العرب والرعيل الاخير من المحدثين منهم ٠

وذكر لى المستشرق تيفيلايت أن فى ألمانيا الديمقراطية تسعين ناشرا ، وأن كل ناشر يتخصص فى ناحية معينة ، فهناك ناشر لكتب الادب ، وآخر للفنون ، وثالث للعلوم ، وهكذا الى آخر ألوان المعرفة ٠

وقال ان المؤلفين يتقدمون الى الناشرين بمؤلفاتهم فتفحصها لجان مختصة ، ثم يتقيد المؤلف الذى تكلفه دار النشر بموضوع معين بموعد تقديمه ٠ ولذلك تصدر دار النشر التى يتولاها فهرسا يتضمن مشروع ما سينشره بزمن طويل ، وانه ينشر كل عام قرابة ٢٨٠ كتابا ويعيد طبع ١٢٠ كتابا من أدب قديم وحديث ومترجم الى جانب الدراسات الادبية ٠وانه قد نشر أعمال تولستوى فى ٢٠ مجلدا وكذلك أعمال بلزاك وزولا ، ونشر أعمال جوركى فى ٣٠ مجلدا وكذلك أعمال شكسبير ٠

على أنه يأسف لأنهم لا يعرفون الكثير عما يصدر من الكتب فى **البلاد العربية كلها على السواء ٠**

وشكواه هى نفس شكوى **الاستاذ عبد الغنى** بيوض **أمين** مطبوعات **الشرق الاوسط فى المكتبة** الاهلية بباريس الذى **زار مصر فى أوائل هذا** العام لسد النقص فى **المواد العربية حيث لا يوجد فى باريس ـ كذلك ـ مورد للكتب العربية التى تطبع الآن فى مصر ، كما أشرنا الى ذلك فى هذا الباب من العدد الرابع والثلاثين الصادر فى مارس الماضى ا٠**

حسن كامل الصيرفى



تيارات في المجلات والصحف

يقدمها
جمال بدران

- إن النقد والنقد الذاتي من أهم الضمانات للحرية ...
- إن الثورة ليست عملية هدم أنقاض الماضي، ولكن الثورة هي عملية بناء المستقبل «الميثاق»

الكلمة القلقة

بينما كان جيش المسلمين في عهد ابى بكر الصديق يحارب المرتدين عن دين الله ، كان رجل منهم جالسا الى قنينة يعب منها الخمر في جوفه .. وهو يرفع عقيرته بالغناء منشدا ..

الا عللانى قبل جيش ابى بكر لعل منايانا قريب وما ندرى

ويبدو ان هذا المرتد قد كان على يقين بما سيلحق به .. فلم يلبث أن ضرب عنقه مجاهد من المجاهدين .. فأسقط رأسه في الوعاء الذى عب منه ..

لذلك قالت العرب .. « ان البلاء موكل بالمنطق . »

ان ما كان ينشده المرتد من أهازيج .. هو فى حقيقتـه كلمات قلقة ، تعبر عما يعانيه صاحبه من اضطراب مكبوت ، وما يضطرم فى جوانياته من صراع بين الحاضر والمصير .. وهى تعبر أيضا عن نقطة النهاية التى وصل اليها فكره المتردد .. فتارة يصبأ ويسلم ، وتارة يتململ فيعود الى الشرك بالله .. وهو فى الحالتين لم يصل الى مستوى الاقتناع ، أو هو فى كلتيهما بعيد كل البعد عن طمأنة اليقين .. ومن ثم هو من باب أولى .. أبعد النـاس عن لحظـة الكشف أو قراءة المجهول ٠٠ فاذا ما انطلق يغنى متنبئا بقرب مصرعه ، فانما هو يجأر بالشكوى من الخطر الذى أخذ يضيق عليه الخناق ٠٠ الخطر الواقع لا الذى ينتظر وقوعه ٠٠ لأنه من صنع يديه هو ٠٠ فهو الذى تردد وارتد ، وهو الذى أفقد نفسه قدرتها على الاختيار ، وهو الذى سلب شخصيته عزمها على الثبات ٠٠ وهو فى النهاية أعدم ارادته فاعليتها ٠٠ فصار الى لاشىء ٠ وكان ضرب عنقه واسقاط رأسه فى القدر الذى شرب منه ٠٠ مجرد تحصيل حاصل ٠٠ فلا فرق بين وجود رأسه يعب الخمر وبين وجودها غارقة فيها ٠٠ بينما الحرب مشتعلة أوارها ٠

ولا يسعنا الا أن نؤنبه قائلين مع بقية العرب ٠٠ « ان البلاء موكل بالمنطق » ٠٠ فلكل نتيجة علة ، والعلة كامنة فى أعماقه ٠٠ فهل كان فى الامكان اقتلاعها منه ؟ ، وهل كان فى الامكان تفادى خطر الحرب الذى أحدق به ؟! حتى نخلصه من القلق الذى اعتراه ؟! ٠٠

من الطريف أننا اذا أصررنا على محاولة الاجابة ٠٠ كان لابد لنا أن نتذكر قول فرويد « ان غالبية كبيرة من الناس تظل على طفولتها فى المسلك ازاء الخطر ، وان هذه الغالبية لم تتغلب على العوامل القديمة المسببة للقلق » ٠

فهل نستنتج من هذا أنه كلما حاق الخطر أو عم ٠٠ ارتد الناس الى طفولتهم ، وصار مسلك مجتمعهم هو مسلك الطفل الذى لا يعى ؟! ٠٠ واذا ماتمادينا فى استنتاجاتنا الطفولية.. فهل يحق لنا القول ان العقلية السائدة فى لحظة الخطر هى عقلية الطفل الذى قد يزيد الخطر مادام عاجزا عن مجابهته أو القضاء عليه ؟!

انها أسئلة يعز على الانسان أن يجيب عليها ، ولن يجرؤ على ذلك غير فرويد نفسه ٠٠ فالأخطار واحدة لكل انسان ٠٠ لأنها خبرة انسانية عامة ٠٠ بل ان الأدهى من ذلك أن القلق يحدث فى الأصل من تعرض الانسان للخطر بالفعل فى موقف معين ، فاذا ماتشابه مع مواقف أخرى٠٠ ظل الانسان متوقعا لهذا الخطر ، ومن ثم ظل على حاله من شعور القلق الذى لا ينتهى ٠ صحيح أنه يتحول الى عنصر تنبيه دائم لهذا الانسان ٠٠ يحذره من وقوع الخطر ، ينذره اذا ما أقدم على موقف خطر ، يؤرقه حتى لا تغفل عيناه عن الخطر ٠٠ ولكن ٠٠ ولكن هو فى كل ذلك عاجز عن مغالبته أو الصمود أمامه ٠٠ والا لما انتابه القلق من جراء حالة الخطر هذه ٠٠ ان الفرد يقدر قوته ازاء هذا الخطر ، ويعترف بعجزه أمامه بدنيا ونفسيا .. ولهذا يساوره الشك فى قدرته على الارتقاء بها الى مستوى

مجابهة الموقف . وهنا تبدو ملامح الطفولة واضحة ، وتستمد الخطورة قوتها من دوام القلق جاسما على أنفاس البشر .. قلق انتظار الخطر أو وقوعه .

ان كل مايتهدد الانسان ليس بالدرجة الأولى من صنع قوى خارقة ، وانما هو من صنع الانسان ذاته .. فاذا ماوقف عاجزا أمام ماقدمته يداه من أخطار .. فانه يكون أشبه بالطفل عندما يشعل النار ليعبث بها ، أو أشبه بفاتح القدر الذى ينتابه الفزع عندما يخرج من القدر مارد ليطيح به .. فاذا ما أردنا أن نبحث عن سبب لما ينتاب العالم اليوم من قلق ، أو لما يحدق بالعالم من أخطار حروب ومجاعات .. فهل نقول ان ذلك كله من صنع البشر انفسهم ؟ او انه ــ حسب تعليل فرويد ــ عبث صغار ؟!

ان ماجاء بالمجلات والصحف هذا الشهر مصداق لهذا القلق العالمى، وتأكيد لدور البشرية فى صنعه ، والزام للانسانية أن تشب عن طوق الطفولة .. وهاقد آن الأوان .. وليس واجبا على البشرية أن تقى نفسها من مسببات هذا القلق فقط ، وانما صار لزاما عليها أيضا أن تعالج شعور القلق ذاته .. وهاهى مجلة ..

مجلة الصحة النفسية

** تعقد مقالا بعنوان « الطب النفسى الوقائى » بقلم الدكتور محمد فخر الاسلام .. يقول فيه .. ان الاضطرابات النفسية فى الأطفال قد تعبر عن ضعف الثقة والطمأنينة فى الأسرة ، أو عدم التوافق بين القيم والمعايير التى يتميز بها سلوك الابوين ، أو التفاوت الكبير بين هذه القيم فى الأسرة ومثيلتها فى المدرسة من حيث العلاقات النفسية مع الكبار والرفاق .

ويركز كاتب المقال على الأسرة باعتبارها المرآة الصادقة للمجتمع .. فيرى أن الطمأنينة فى جو الأسرة ليست الا انبثاقا عن الطمأنينة الاجتماعية بصفة عامة ، وهى التى تتوقف بدورها على استقرار الامور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية السائدة فيه .

ولهذا فلابد أن يهيىء المجتمع لشبابه الصاعد طرقا سوية لسلوكه الجماعى ، حتى يوجه طاقاته النفسية الى أعمال جماعية تعود عليه بالنفع ، ويتواءم بها مع حاجات المجموع ايجابا وتفاعلا .. لا مجرد الموقف السلبى بشتى صوره مثل العزلة أو التهرب بتعاطى المغيبات وتجرع الخمر مثلما كان يفعل المرتد عن دين الله ..

ولهذا فان الكاتب يواصل تأكيد أهمية متابعة المرضى بعد شفائهم لوقايتهم من النكسة فيما بعد ، ووقاية أبنائهم من سلوكهم غير السوى ومعاملاتهم المضطربة التى تؤثر نفسيا على تربيتهم لهم . وهنا يحق لنا أن نتساءل ان كان كل العلاج يقع على كاهل أخصائيى الطب النفسى الوقائى وحدهم .. أم يحتاج الأمر الى شىء آخر .. ؟! ان المقال يفرد سطورا للتوعية .. ولكن توعية من ؟ توعية المجتمع .. فكيف تتم التوعية من غير اقتناع !! وكيف يتوافر الاقتناع بينما القلق يملأ القلوب ؟!

لاداعى للتشاؤم ٠٠ فخبرات الانسان ومحاولاته لا تنقطع ٠٠ ولنا فى المقال الذى نشرته مجلة ٠

٠٠ ما يثلج القلب ولا أقول يطمئنه ٠٠ فقد كتب الاستاذ على أدهم عن « مشكلة الشر والألم عند العقاد » يقول .. « هناك حجة اخرى كثيرا ماتردد ، وهى أن معظم مايصيبنا سببه فساد الجنس البشرى والتواؤه ، فمن قبيل ذلك « أهوال الحروب وسببها سوء العلاقة بين الانسان وأخيه الانسان ، وهى لا تزول الا اذا حلت روح الاخاء والتعاون محل الروح الفردية ، فعلاج مشكلة الحرب بأيدينا ، واذا قصرنا عن ذلك فالذنب ذنبنا ، فلماذا نلقى تبعة ذلك كله على الله جل شأنه ؟ »

انه يؤكد أثر البيئة الاسرية المتدينة على تفكير العقاد ، فهى التى قللت من حدة قلقه ازاء وجود الشر والالم فى هذا العالم الذى يرعاه الله ، وهى التى عبرت به مرحلة الشك التى تعترض كل شاب الى بر الايمان والاقتناع ٠٠ وها هو يفلسف اقتناعه بأن قال لنا ٠٠ « لم تضطرب النفس الانسانية قط بالشعور الذى لايطاق الا التمست لها ملاذا فوق طاقتها وقاربت بذلك ملاذ الايمان ، وبعد فليفرض من شاء أن مشكلة الشر عقدة باقية فماذا نريد ؟ أنريد كونا كهذا الكون الهائل لا عقدة فيه ولا ينطوى على سر مجهول وراء حجاب ؟ ان كان هذا مرادنا فليس بالعجيب الا نجاب عليه » ٠

الفكر المعاصر

هذا السر المجهول ، أو هذا الغموض ٠٠ ينطبع على تصرفاتنا نحن ، على سلوكنا ، يعبر عنه بعض انتاجنا الأدبى والفنى ٠٠ فيحمل رموزا أو أحاجى ، أو يصطبغ بالحيرة والاضطراب ٠

وقد كتب الدكتور شكرى محمد عياد مقالا عن هذا الغموض فى مجلة ٠٠

٠٠ خصصه للشعر الحديث ٠٠ فحدد مظاهر هذا الغموض فى أربعة ٠٠ هى ٠٠ اعتماد الأديب على ثقافته أكثر من اعتماده على تجاربه المباشرة ، تحول هذه الثقافة الى تعبير رمزى يصعب فهمه على غيره ، حيرة الأديب بين نوازع كثيرة عجز عن تحديد موقفه تجاهها جعلته يلجأ الى التركيز الشديد ، والمظهر الرابع يتمثل فى التجريد الناتج عن الحاح العلاقات الداخلية فى لعمل لفنى أكثر من لحاجة الى تصوير هذه العلاقات للعالم الخارجى :

ولهذا فان الشعر الحديث يفضل أن يكون معبرا عما يحسه الانسان الحديث فعلا ، ويعيد للفن الشعرى دوره الطبيعى ٠٠ وهو ابراز هذه الاحساسات من ضباب الشعور الى عالم الصور المنتظمة فى أشكال ، ويرفض ويزدرى فكرة أن يكون الفن عالما من المواقف المنعزلة عن مواقف الحياة ، بل المناقضة لها ٠

لكننا نرى شاعرا عربيا يمثل الغربة الحديثة فى شعرنا أصدق

تمثيل .. ألا وهو أدونيس ، فقد كتب عنه محمد حافظ دياب مقالا دارسا لهذه الغربة .. وها نحن نقرأ منه فى مجلة ..

.. مواصفات التجديد التى يتميز بها شعره .. فهى .. تجاوز الواقع الى الرؤى والاحلام ، الاهتمام العقلى بتكثيف تجربته الشعرية الى درجة تبلغ أحيانا حد التجريد ، صدق التجربة الشعرية يتبدى فى اثارة الجو الموحى بصرف النظر عن التحامها بالصورة الفنية أو خلقها للكلمات دقيقة التعبير ، منح المعانى صفات بشرية ، غموض الصورة الفنية لتركيبها من المعانى الرمزية والحدسية ، تحرر الذات الانسانية وتفردها فى شعره ، وأخيرا تخليه عن مظاهر الرؤيا المباشرة فى تجربته .

ومسلك أدونيس فى شعره نحو الطفولة للتعبير عن النفس الانسانية المفردة .. تجسيد حى لرأى فرويد فى القلق الانسانى .. فهو حينما يقول : للطفولة

تشرق الشمس خجولة
هى ينبوع حياة يتفجر
وهى دنيا .. وهى أكثر
فى خطاها يصغر الكون الكبير
ويفيق الأبد

فبينما يقول هذه الكلمات الطفولية الصادقة ، نجده يقول هذه الكلمات القاتمة ..

مسافر دون ما حراك
ياشمس . من أين لى خطاك
لأننى أمشى
أدركنى نعشى

فهل نتلمس علاجا لهذا القلق فى هذا التفريغ الشعرى .. حتى تهدأ نفس قائلها ونفس المستمع لها ؟ ! ربما .. فها هو يفجر شحنة شعرية عارمة : ألا ثورة . ثورة فى الصميم

تشيد لنا بيتنا
وتجرى معاصرها زيتنا
وتملأ بالحاصدين الحقول
وتملأ بالزارعين السهولا
ألا ثورة ، ثورة فى الصميم تنششنا من جديد
وتمحق فينا هوان العبيد

ان الشاعر هنا .. مغترب حقا ، ولكنه لا يهرب ، بل يقترب منا ثائرا ، يعبر عما يخالج المواطن العربى الجديد ، يقتلع سلبياته .. لينطلق فى مسار الحياة المتجددة .. فهل يقدر الانسان اقتلاع سلبياته ؟ ان لطفى الخولى يجيب على ذلك فى مجلة ..

.. قائلا .. « التجربة الانسانية التاريخية تعلمنا ، انه ما من عمل انسانى ـ مهما كانت درجة نجاحه أو اخفاقه ـ الا ويعطى فى النهاية ثمارا ايجابية وثمارا سلبية معا ، وذلك بمفهوم العصر والواقع والاتجاه الذى

الطليعة

وقع خلالها هذا العمل · ومهمة الثورى المناضل دائما هو التمييز الدقيق بين الايجابى والسلبى ، ومحاولة استخدام ما ينبع عن الايجابى من طاقات فى معالجة السلبى · وضرورة استبعاد النظرة الجزئية للسلبيات حتى لا تضيق نظرته أو يتوهم عمومية هذا الجزء السلبى ، ومن ثم قد يعزل الثورى بنظرته الجزئية موقع اكتشاف السلبية عن الخبرة الجماعية المكتسبة فى الأجزاء الأخرى ·· ولهذا فان الثورى المناضل مطالب أيضا - وهو فى تصديه للسلبيات فى أى موقع - سواء أكان القطاع العام أو الاتحاد الاشتراكى أو أجهزة الدولة ·· أن لا يراها فحسب فى ضوء الكل الخاص بهذا الموقع ، وانما فى ضوء التطور العام للمجتمع فى حركته نحو الاشتراكية ، وما يموج داخل هذه الحركة من صراعات بين القديم والجديد ·

ان خطورة السلبيات تتمثل فى ترك المعوقات لتنمو معترضة طريق البناء الاشتراكى ·· وهنا مكمن الشر ، ومثار القلق ·· ومن ثم لا يتطلب الأمر تعرية السلبيات وكفى ، بل يستلزم محاولة علاجها والقضاء على أسبابها ، أو بتر العاملين عليها اذا لم يجد معهم علاج ، لانهم لايظلــون فى حيز السلبيات ، وانما يخرجون الى مجال المعوقات ، بل لا أقول الى حدود الانحرافات لأن محاولة النصح والعلاج لم تلق منهم قبولا ، ولأن نداءات المشاركة فى العمل والانتاج لم تجد معهم فتيلا ·

ان السلبية ظاهرة لم تعد مقصورة على شعب دون آخر ، وانما هى صارت من التفشى بحيث صارت تشكل خطرا عالميا يماثل فى حدته ظاهرة القلق ·· فهاهى مجلة ··

المختـار

·· تقدم لنا مقالا مترجما بعنوان « اذا ســـاروك الشـــك فلا تتردد » ينعى فيه كاتبه جنوح الغالبية الى المراقبة بدلا من العمل ، والميل الى الاستسلام لتلك الأصوات الماكـرة السلبية التى تنصـــحنا على الدوام بالحرص والحذر فى تناولنا لذلك الشىء المعقد الذى يسمى العيش ·· وفى رأى كاتب المقال أن ذلك مرجعه الى سببين ·· أولهما مغالاة الوالدين فى حماية أطفالهم بسيل لا نهاية له من أوامر النهى ، الأمر الذى يتعارض وتربية هؤلاء الأطفال تربية سليمة ، هدفها الاعتماد على النفس واثارة الحماسة وروح العمل عندهم ، وثانيهما التعلق الشديد بالعناية بالصحة ، وفهم الراحة على أنها هى أساس الحفاظ على الصحة ·· وخرج علينا الكاتب العجوز بنصيحة هامة ، اكتسبها من تجاربه هى .. ان الشك فى شىء ، صار مدعاة لكشفه ، والكشف لا يتأتى الا من الاصرار والعناد فى الاقدام على هذا الشىء ·· حتى يتبدد هذا الشك ، ويقترب من اليقين ، ومن ثم يهدأ البال وتطيب النفس ·

ولكن هل نكون بذلك قد قضينا على عوامل القلق ؟ ٠٠ أظن أن فى المقال الذى نشرته مجلة ٠٠

٠٠ بعنوان « الحرب البيولوجية والكيماوية » للدكتور محمد رواش الديب ٠٠ مايكتم كلمة نعم فى الحلق ، ليوقفها عن الموافقة ٠٠ فهو يقول لنا محذرا ومنبها « ٠٠ ان معامل قلعة ديتريك مشغولة بأربعة بحوث هى ٠٠ محاولة اكتشاف أشد الميكروبات والجراثيم فتكا بالانسان والحيوان ، محاولة اكتشاف الميكروبات التى لا تتأثر بالمبيدات الحيوية الموجودة ، البحث عن أشد الآفات فتكا بالنباتات والمزروعات ، البحث عن أفضل الطرق لزيادة مناعة الميكروبات ضد كل الظروف الجوية ونشرها فى أكبر مساحة من الارض ٠٠ وهذه الميكروبات هى « الجمرة الخبيثة، الدوسنتاريا، الحمى المتموجة، الطاعون، الجلاندز. حمى جبال روكى المتقطعة • التهاب المخ ٠٠ » الخ والعياذ بالله ٠٠ كذلك تتجه بحوث مؤسسة تحليل البحوث بالقرب من وشنطن الى المجالات السريعة التخريب • مثل ٠٠ الحرب الزراعية ، دراسة الهجوم البيولوجى والكيماوى على المحاصيل وأثر ذلك على حيوانات المزرعة ، أثر الهجوم على محاصيل غذاء الفدائيين ، حرب العصابات ومقاومتها ، تقييم لمستلزمات مقاومة حرب العصابات فى جنوب شرقى آسيا ، قيمة الكيماويات السامة فى الحرب البرية ،

هذا الى جانب الكيماويات الحربية فى البنتاجون مثل غازى الاعصاب « تابون ، سارين » ومثل الغاز الحارق ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠٠

كل هذه مستحدثات علمية ٠٠ توصل اليها الانسان ٠٠ العالم ٠٠ عالم القرن العشرين .. فهل هذه عينات من نتاج قلقه ؟!.. أم أنه مهما بلغ من العلم شأوا ٠٠ فهو هو الانسان القلق.. طفل فرويد.. العاجز أمام الخطر ، والمبدع فى خدمة الخطر !! يشعل النار ويلهو بها ، ويثير الحرب ثم يعجز عن أن يوقفها ٠٠ فلا يجد مفرا من الغناء مثل ذلك المرتد المخمور أمام جيش المجاهدين فى سبيل الله ، ولن يسمع بالطبع بعدئذ تعليق أحد ٠٠ لأن البلاء ٠٠ فى هذه المرة سيكون شاملا للمترقب مع المشترك فى نشر هذا البلاء ٠٠

وكل الذى يأمله قارىء القرن العشرين هو ألا تعبث الخمر بالرءوس، وألا تدور نشوة مبتكرات الدمار العلمية بعقول أصحابها ، أو تلعب بضمائر مبتكريها •

جمال بدران